الأدب العربي في ما له وفي ما عليه

إدوار مرقص



الأدب العربي في ما له وفي ما عليه

الأدب العربي في ما له وفي ما عليه

تأليف
إدوار مرقص



الأدب العربي في ما له وفي ما عليه

إدوار مرقص

رقم إيداع ١٥٤٩٩ / ٢٠١٤
تدمك: ٤ ٠٥٥ ٧٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

المحتويات

بسم العليم الفتّاح

هذه رسالة اجتهدت أنْ أجعلها — على صغر حجمها — خير سبيل واضح، موطأ الأكناف، يفضي بسالكه إلى نماذج كافية من محاسن الأدب العربي، وكأنها رياضة، ويدله على أمثلة من مساوئه، وكأنها على حواشي تلك الرياض أشواك وحجارة معثرة، مع الإشارة إلى دواعي الحسن والقبح في كلتا الفئتين تتخللها نوادر طيبة، وقد تصدرت الجميع لمحةٌ ذاتُ أشعة وَهَّاجة في تاريخ الأدب العربي.

وأمَّا ختام الرسالة ففصل ربما استحق أنْ يُعد فصل الخطاب في أوجه التقصير التي يُتهم بها أدبنا، ومبلغ الصحة أو الزور من كل من تلك الأوجه مؤيدًا بالدليل والشاهد، ومن ثمَّ يتمكن قارئ الرسالة الممعن فيها نظره أنْ يقف على الشيء الكثير من أسرار الأدب وقوفًا صحيحًا مجملًا، يغنيه عن التفصيل إنْ أراد الاستغناء، ويساعده على تفهمه أعظم مساعدة إنْ أراد أنْ يتتبعه في مظانه من مطولات الكتب. والله المسئول ألَّا يخيب مسعاي فيما قصدته من خدمة نصوح لطلاب الأدب وأنصاره بهذه الصفحات اليسيرة.

لاذقية العرب (سورية)

إدوار مرقص

توطئة

هذا البحث عنوانُه إعلانُه، فمتى طرق الأذن ذِكر موضوعه لمح العقل بداهة ما فيه من اتساع، وما له من سمو شأن، ولكني لست أطمع في هذه العجالة أنْ أُوَفِّيَه حقه بالتفصيل؛ لأن تفصيله يقتضي وضع كتاب يبلغ عدة مئات من الصفحات الكبيرة، مما أخشى أنْ يعجز عنه قلمي، أو وقتي، أو كيسي، أو الثلاثة معًا في الوقت الحاضر. ومن ثَمَّ لم يكن لي بد من أنْ أقنع بالإجمال لهذا البحث، إجمال يطوقه بنظرات سريعة، أرجو ألَّا تكون على سرعتها مخطئة خائبة فأفي من حقه نصيبًا صالحًا.

للأدب بضعة تعريفات مختلفة في الظاهر، متقاربة في النتيجة، وأمَّا الذي أعنيه بالأدب العربي هنا فمنظوم العرب ومنثورهم، وقد رأيت بالاختبار الطويل — كما رأى كثيرون غيري من الذين سبقوني والذين عاصروني — أنَّ الأدب العربي خير صلة، وضمان ولاء بين الخاصة من العرب والمستعربين، وإنْ اختلفوا رأيًا ومبدأً وسيرةً في بعض نواحي الحياة والاجتماع، وتنافروا قليلًا أو كثيرًا من أجل ذلك. فعلى قدر التفافهم حول هذه الرابطة الجوهرية الشريفة — رابطة الأدب العربي — وحرصهم عليها؛ يقل خطر اختلافهم فيما عداها، ويخف تنافرهم أو يزول.

ولو لم يكن للأدب العربي إلَّا هذه المكرمة لكَفَتْهُ فضلًا وفخرًا، فكيف به وهو يحرز معها تاريخًا مجيدًا عريقًا في قِدَمِهِ، وقوة بيان تسحر الألباب، وتفتح لقضاء الحاجات الأبواب، ودستورًا واسعًا لمكارم الأخلاق، ودهاء رجال العقول. هذا شأن الأدب العربي، فكيف لا نلتفت إليه وننظر في ما له وفي ما عليه؛ لكي نتقي هذا ونستزيد من ذاك …

والأدب أشرف أنواع العلم، وأجمل ألوانه، وألصقها بخلجات القلوب، وومضات العقول، ومزاياه هذه تكاد تظهر بداهة، ويقنع بها الحس والوجدان في كل محادثة

ومفاوضة ومظهر اجتماعي من أُمور الناس. ألا ترون أنَّ كلًّا من عالم الطبيعيات، وعالم الكيمياء، وعالم الفلك، وعالم الرياضيات، وعالم النبات والحيوان، والطبيب، والصيدلي، والفيلسوف، والفقيه، واللاهوتي؛ إذا لم يكن له مع تضلُّعه من الفرع الذي تخصص به نصيبٌ حسن من صناعة الأدب، يظهر على أسلة لسانه، أو أسلة قلمه عابه كثيرًا تقصيرُه ذاك، وأزرى به، وخفَّض قيمة ما أحكم تحصيله في العيون، وقلَّص من مهابته في النفوس.

وهذا الشرط لا يلزم الأديب تجاه العلوم إلى الحد الذي يلزم العالم تجاه الأدب، وإنْ كنا لا ننكر زيادة قوة وبهاء للأديب حين يضرب بسهم صالح من العلم. وهناك أيضًا للأدب مزية أُخرى عظيمةُ الشأن، وأريد بها الثبات والخلود لقوامه وأركانه، فإن ما يحسب اليوم من محاسن القول وبليغ الكلام، كان يحسب هكذا منذ ألف سنة، بل ألفين وأكثر، وما هو اليوم رديء كان عند الأقدمين رديئًا، فمبادئُ الأدب ونواميسه في التعبير والتفكير لم تتغير في جوهرها وفي الكثير من أعراضها، وأمَّا نظريات العلوم ومبادئها فقد تغيرت مرارًا، بل انقلب بعضها رأسًا على عقب، ولا تزال عُرْضة للتغيير والتبديل والانقلاب.

ولا بأس — قبل الدخول في صلب الموضوع — أنْ أشير باختصار إلى الأطوار الأساسية التي اجتازها أدبنا العربي، من أوائل نشأته حتى اليوم؛ فإن بين الموضوع الحاضر وهذه الإشارة لُحْمة نسب واضحة، أرى مراعاتها أقرب إلى الإنصاف، وأضمن لاستتمام الفائدة.

إنَّ الطور الأول للأدب العربي — حسبما تداوله وتناقله كُتَّابُ العرب ورواتُهم — هو عهد الجاهلية الثانية. وأول من اشتهر من شعرائها عدي بن ربيعة التغلبي المعروف بالمهلهل، وقد عاش قبل ظهور الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة. ثم تعاقب بعده شعراء المعلقات السبع، أو السبع الطوال، أو المذهبات السبع، ومعهم غيرهم من أمراء الكلام، كأعشى ميمون، والشَّنْفَرَى، وعلقمة الفحل، والنابغة الذبياني، وحاتم الطائي، وأبي كبير الهذلي، وعروة بن الورد، وقس بن ساعدة، وأكثم بن صيفي، وغيرهم جمهور كبير.

غير أنَّ جماعة من المحققين المحدثين وبينهم جرجي بك زيدان من أبناء عصرنا الحاضر، نظروا في الأدب العربي نظرة أدق وأوسع فرَجَّحُوا، بل أيقنوا، أنَّ عصر الجاهلية الثانية ليس أول عصور الأدب العربي، ولكن لنا أنْ نتسامح بتسميته كذلك باعتبار أنه أول عصر للأدب العربي وصل إلينا الشيء الكثير من آثاره وأخباره. وأمَّا النشأة الأولى للأدب العربي فهي قبل الجاهلية الثانية بقرون كثيرة، هي معاصرة لإبراهيم الخليل وربما سبقتْه، هي معاصرة لأبناء عمومتها من قدماء الأشوريين والبابليين والفنيقيين.

وقد أشار الكتاب العزيز إلى ذلك بذكر الجاهلية الأولى، كما أشارتْ إليه الأخبار المبهمة المبتورة عن العرب البائدة، وأعظم قبائلها: عادٌ الأولى، وعاد الثانية، وثمود، وطسم، وجديس، وجرهم، والعماليق، ومن الإشارات إلى مدنية العرب القديمة ورود ذكر الإسماعيليين في التوراة، أي: العرب المستعربة المتحدرة من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل، ومشتراهم ليوسف الصديق من إخوته، وذكر الملوك الرعاة الذين هم من أصل عربي، وتبوُّؤُهم عرش الفراعنة حقبة طويلة من الدهر، وقد سمي عصرهم عصر الملوك الرعاة، وقد ثبت أو كاد يثبت أنَّ أيوب الصديق الذي عاش في حوران واسع الثروة، عريض الجاه قبل الميلاد المسيحي بنحو سبعة عشر قرنًا؛ كان عربيًّا من العرب العاربة القحطانية.

ومن الأدلة على عروبته كلامه في سفره، فإن فيه كثيرًا من الصور المجازية المأنوسة في الأدب العربي، لا سيما عند وصفه الفرس، ولا شك أنَّ حوادث الدهر من حروب وثورات وزلازل وطغيان مياه اجتاحت تلك المدينة العربية القديمة، وطمست آثارها، وفي جملة ذلك لغتها، وأدبها، وعلمها، وصناعتها. على أنَّ لغة العرب البائدة وما تَخَلَّفَ عنها من لغة حمير وسباء، لم تكن نفس لسان مضر المبين، أي: لغة قريش، ولغة بعض القبائل الموثوق بعربيتها في الجاهلية الثانية، التي هي لغتنا الفصحى، بل كان بين اللغتين فروقٌ كثيرةٌ واضحة.

وقد قيل: إنَّ تلك اللغة القحطانية القديمة كانت وسطًا بين اللغة العدنانية الحاضرة واللغة السريانية، ولكنها إلى العدنانية أقرب، وإذا تسنى لشبه جزيرة العرب أعمال حفر وتنقيب عن الآثار كما تسنى ذلك لوادي النيل، فلا بُدَّ أنْ يكتشف البحاثون آثارًا وعاديات، وكتابات مختلفة توضح الشيء الكثير من مدنية العرب، وآدابهم من قبل الميلاد المسيحي بنحو عشرين قرنًا إلى ما بعده بأربعة أو خمسة قرون، كما دلت الآثار المكتشفة في وادي النيل على قسم كبير من تاريخ الفراعنة، ورعاياهم من قدماء المصريين، وعاداتهم، وآدابهم، ومعتقداتهم.

ومن أوجه ما قاله المحققون بهذا الصدد، أي: وجود أدب عربي قديم قبل الأدب العربي المعهود عندنا، المعمورة به مدارسنا ومجالسنا ومكاتبنا وصحافتنا؛ أنَّ لغات البشر لا يمكن أنْ تبلغ أشدها فجأة بل تدريجًا في عصور متطاولة، ولا شك أنَّ اللغة العربية خاضعةٌ لهذا الناموس الاجتماعي المعقول.

وإذا كان الأمر كذلك فلا يعقل أنَّ القرن السادس للميلاد — وهو عهد الجاهلية الثانية — كان عهد النشأة الأولى للغة العربية وأدبها في منظوم القول ومنثوره، بل هو جزء من طور شبيبتها، فقد عهدناها فيه قوية بمفرداتها، وسبك قوالبها، ومترادفاتها، وطرق مجازها، وروائع أفكار أدبائها وخطبائها. فلا جدال أنَّ هذا الطور سبقه طور طفولة، وطور صبوة، ولا يمكن أنْ تولد اللغة شابة والأدب شابًّا، إلَّا إذا أمكن أنْ يولد الآدمي شابًّا، ومما يؤيد هذه النظرية التي تَشِفُّ عن بعد نظر قول زهير بن أبي سلمى المزني:

لا أرانـا نـقـول إلَّا مـعـارًا   أو مُعادًا من قولنا مكرورا

وقول عنترة بن شداد العبسي:

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهُّم

وفي هذين القولين دليلٌ واضحٌ على أنَّ القوم لم يكونوا يَدَّعُون لعصرهم ما قد يدعيه بعضنا له من ابتكارات في الأدب، وإحداث مذاهب خلابة فتانة في القول، بل يعتقدون ويعترفون أنَّ أسلافهم القدماء لم يكادوا يتركون زيادة لمستزيد في ذلك الصعيد. وبديهي أنَّ أسلافهم كانوا من أدباء العربية أيضًا بحيث يفهمون آثارهم ويتذوقونها، ويشيرون إلى فصل أصحابها كما رأيتهم. فلم يكن أولئك الأسلاف من أدباء الفرس، أو اليونان، أو الرومان مثلًا … ولو وجد التدوين والكتابة في الجاهلية الثانية لوصل إلينا شيء يستحق الذكر، مما كان يرويه ويعرفه أهلها من آثار وأخبار الجاهلية الأولى.

أمَّا الجاهلية الثانية فالمعروف عندنا من مزايا أدبها نظمًا ونثرًا: الصدقُ، والصراحة، والجرأة مما يلائم طبيعة أهلها، واستقلالهم في شئونهم، وأنفتهم. ويتبع ذلك اعتدال معظمهم في المبالغة مع فصاحة أسلوبهم، ومتانة كلامهم في مفرداته ومركباته. ولا غرو فَهُمْ أصحاب اللسان المضري المبين، وعلى أقوالهم بُنيتْ قواعده وأحكامه بالاستقراء، كما بُنيت على آيِ القرآن الكريم.

ثم جاء عهد المخضرمين فعهد الأُمويين، فحافظوا في أدبهم على هذه المزايا السامية، واكتسبوا فوقها مزايا أُخر، منها: تجافيهم عن كثير من مظاهر الخشونة البدوية، التي كانت تطفو على شيءٍ غير يسير من الأدب الجاهلي. ومنها: تحصيلهم فوائد ومعلومات

وفضائل كثيرة بعد دخولهم في الإسلام، ووقوفهم على عقائده وآدابه ودقائق شريعته. وبعد توغلهم في المعيشة الحضرية، واصطدامهم بمدنيات الأنباط، واليونان، والسريان، والرومان.

فاتسعت أمام مداركهم وتصوراتهم آفاقٌ جديدة من التفكير، وقضتْ عليهم طبيعة العمران، وعوامل السياسة والإدارة والقضاء، والجندية أنْ يَتَأَنَّقوا، ويطيلوا أنفاسهم في الخطب والمراسلات والمحاورات والوصايا المختلفة. وكان الجاهليون لا يكادون يعرفون إلَّا البساطة والإيجاز والاقتضاب في هذه المطالب.

وهذا العصر أحظى جميع عصور الأدب العربي ببلاغة الأداء والقوالب العربية الصحيحة، وإنْ كان كل عصر من بقية العصور بعده لا يعدم من ذلك حصة جليلة أو ضئيلة، ومن المتعارف المتفق عليه بين علماء العربية أنه يجوز الاستشهاد على أيِّ بحث أريد من مباحث متن اللغة والصرف والنحو بأقوال الأدباء الأُمويين، كما يجوز الاستشهاد بأقوال الجاهليين والمخضرمين.

هذا هو الأوجُ العظيم الذي بَلَغَهُ أدب العرب في العهد الأُموي، وقد تولت زعامته بلادنا الشامية هذه.

قلت يومًا لدار قوم تفانوا   أين سكانك الكرام علينا
فأجابت هنا أقاموا قليلًا   ثم ساروا ولست أعلم أينا

وأمَّا من جاءوا بعد عهد أمية من عباسيين، وأندلسيين، وفاطميين، ومغاربة، فلا يجوز الاستشهاد بقول واحد منهم، ولو بلغ من العلم والفضيلة والشهرة مبلغًا عظيمًا، وإنما يجوز الاستئناس بأقوالهم في هذا السبيل لا اتخاذُها حجة دامغة، كما يجوز تقديم الأمثلة في علم البيان، وفي غيره من مصطلحات علم أو فن أو صناعة، أو عادة جارية، أو حادث تاريخي، أو حديث مأثور، من أقوال أي أديب كان إذا اشتملتْ على هذا المطلب، سواء كان الأديبُ متقدمًا في الزمان أو متأخرًا.

ثم جاء العصر العباسيُّ وما حاذاه من عصور أهل الأندلس، ثم عصور الدول التي انشقت عنه — أي: عصور الفاطميين، والمغاربة، وآل بُوَيْهٍ، وآل حمدان — وحَمَلَة الأقلام في هذه العصور يُعرَفون بالمولَّدين أو المحدثين، كما يعرف العصر السابق — أي: عصر بني أُمية — بالعصر الإسلامي الأول، أو العصر الإسلامي القديم، أو العصر الإسلامي بإطلاق اللفظ.

وقد وصلت المدنية العربية في العصر العباسي وفروعه إلى الذروة العليا في العلم والفن، والصناعة والسياسة، وترف المعيشة. واشتد اختلاط العرب بالأعاجم تحت الرايات العربية إلى حد مدهش، فتأثر الأدب العربي بهذه الأحوال الطارئة أيما تأثر، وظهرت له ألوانٌ وصبغات علمية وفنية واجتماعية لم تكن معهودة منه في الطور السابق — أو كان له منها لمحات يسيرة لا يكاد يتبينها إلَّا الباحث المتأمل — ومن ثَمَّ اتسع نطاق المنظوم والمنثور في ضروب التفكير والتعبير.

ولا شك أنَّ هذا التقدُّم الأدبي يُحسب حسنة كبيرة من حسنات تلك المدنية الزاهرة الباهرة، ولكن الناقد البصير لا ينسى أنه قام يومئذٍ إزاء ذلك الإحسان مساءة مخزية بعوامل المدنية نفسها. نعم، إنَّ المولدين ازدادت أساليبهم رقة وتفننًا، ولكنهم قصروا في متانة اللفظ وصحة التركيب عن أسلافهم، نعم، إنهم أبرزوا من دقائق المعاني والتشابيه ومدهشات التأويل والتعليل ما لم نعهده من رجال الأدب العربي القديم، ولكنهم قصروا عنهم مسافة شاسعة في الصراحة، والجرأة، والإباء، والأنفة، إذ قام مقام ذلك في كثير من آثارهم نفاقٌ وتدليسٌ وخنوعٌ واستخذاءٌ، ذهبت دولة البساطة والطبيعية لتحل محلها دولة التصنُّع والتكلف.

ولا شك أنَّ من نتائج ذلك التكلف ما مني به القوم من الولوع بالسجع، أي: الكلام المُقَفَّى إلى غايةٍ أفسدت محاسنه ونكرت معالمه، فقد أسرفوا في ذلك إسرافًا مستثقلًا، بحيث أصبح السجع ستارًا كثيفًا لعجز العاجزين إزاء السامعين والقارئين، إلَّا إذا كان فيهم أهل بصر وبصيرة لا يعوقهم ذلك الستار عن صحة النظر وصحة الحكم. هكذا شأن الكلام المسجع إذا أفرط فيه أصحابه، وأمَّا إذا جرى مجرى الاعتدال، وكان رصينًا حالًّا محله؛ فلا شك أنه يحسب حلية من حلى الأدب.

والذي قلناه في السجع يصح أيضًا في غيره من المحسنات البديعية اللفظية، وأهمها الجناس على اختلاف أنواعه؛ فقد أفرط القوم في ذلك على سبيل التحذلق، والمباهاة الفارغة، فأساءوا وافتضحوا، ولو اعتدلوا لَأحسنوا وأصابوا.

ومن مفاسد تلك الحقبة الطويلة، عادةُ التغزُّل بالغلمان والتمتع بهم، والتباهي بذلك والتنافس في سبيله. ومحصل القول: أنَّ استبحار الدول العربية في عمرانها، وشدة احتكاكها بالمدنيات القديمة للفرس، والسريان، واليونان، والرومان، والقبط، والنبط؛ أفادهم في عدة نواحٍ من العلم والأدب، والفن والصناعة، ورغد المعيشة، وأَضَرَّ بهم في نواحٍ أُخر بدبيب العدوى الخبيثة فيما أشرنا إليه من مفاسد القول والعمل.

ثم جاءتْ عصورُ الانحطاط من القرن الثامن أو التاسع للهجرة إلى أواسط القرن الثالث عشر، وأسباب الانحطاط ضعفُ الدول العربية، بل زوال كثير منها مع ما أصاب البلاد من جوائح هولاكو، وتيمور لنك، والحروب الصليبية، وحروب عرب الأندلس مع جيرانهم الفرنجة، وتطاحُن العرب هناك فيما بينهم، وانقسامهم إلى دويلات سمي أمراؤها: ملوك الطوائف، ثم ذهاب ريحهم جملة، وتركهم البلاد لأصحابها الأوَّلِين.

إنَّ هذه الأحداث وقفتْ سدودًا عالية من حديد في وجه الأدب العربي في الثقافة العربية، فلم يكن أهل العلم والأدب يرون أمامهم من تنشيط مالي أو معنوي بعض ما كان يتمتع به أسلافُهم، ففترت هممهم، ثم كلَّت قرائحهم وأقلامهم، واقتصروا على التقليد الجامد، والمحاكاة الجافة بعبارات ركيكة وخواطر قاصرة.

ولكن هذا الطور — على ضعفه — أفادنا بإخراج عدة كتب نفيسة من الموسوعات العلمية والأدبية، حشدت فيها تحف وطرف كثيرة من أقوال المتقدمين والمولدين، ولم يحرم هذا الطور رجال قرائح نيرة وأذهان حادة، كابن خلدون، وجلال الدين السيوطي، وصفي الدين الحلي، وابن نباتة المصري، وابن النبيه، وغيرهم.

وقبل الخروج من التوطئة الحاضرة يجدر بي أنْ أوجه نظر القارئ إلى الكرامة العظيمة التي نالها الأدب العربيُّ في عُيُون الأعاجم، فضلًا عن عيون أهله، حتى إنَّ الإسبان جيران العرب وعشراءهم كانت فئاتٌ منهم تُقبل عليه وتتدارسه، وينبغ بينها من يجيد النثر والنظم في اللغة العربية.

ومن مرويات ذلك الزمان أنَّ أحد زعماء الدين المسيحي من الإفرنج، وكان أسقفًا لقرطبة كتب إلى بعضهم يشكو زهد أبناء أبرشيته، ولغته في اللغة اللاتينية التي هي عندهم لغة الدين، وتاريخهم الكنسي، وتاريخهم القومي، حتى إنَّ بعضهم ضعفاء فيها إلى درجة مخجلة، في حين أنَّ كثيرين منهم فُتنوا باللغة العربية والأدب العربي، وأقبلوا عليهما حتى بلغوا منهما درجة حسنة كأنهم عرب أقحاح أبًا عن جد.

ومدلول هذا الحادث جليٌّ واضح، لا يحتاج إلى شرح وتعليق، فوا أسفاه، ووا خجلاه! ما أعظم الفرق بين حالنا وحال أسلافنا أولئك! نصرتهم عزةُ الجانب حتى غزت الأجانب في عقر دارهم، كما نصرت الأجانب اليوم حوالينا حتى غزتنا في عقر دارنا.

ولقد وقفت على ديارهم   وطلولها بيد البلى نهبُ
فتلفتت عيني فمذ خفيت   عني الطلول تَلَفَّتَ القلب

ثم جاء بعد عهد الانحطاط عهد نهضتنا الحديثة الحاضرة، التي ابتدأت منذ مائة سنة تقريبًا على عهد المغفور له محمد علي باشا — مؤسس الأسرة المالكة اليوم في مصر — فقد انتصر للعرب والعربية انتصارًا صادقًا، مبارك الثمرات، وحذت حذوه في ذلك سلالته الطيبة، وقام أهل سورية ولبنان بقسطٍ كبيرٍ من مظاهر هذه النهضة، ولا نبالغ إذا قلنا: إنهم قاموا بالقسط الأكبر منها في أوائل نشأتها، وكان معظم الفضل يرجع إلى هممهم وقرائحهم، لا إلى حكوماتهم وحكامهم، ولم يقصر في هذا السبيل أهل مصر، والعراق، والمغرب، وجزيرة العرب. ولكن بخطواتٍ أبطأ.

ولا يلزمني الساعة أنْ أفيض الكلام بشأن نهضتنا الحاضرة، فنحن اليوم لا نزال في قيد الحياة نخوض عبابها، ويكاد يغنينا فيها الخُبر عن الخبر، ولكن لا بُدَّ من إلقاء حكم إجمالي عليها بكلماتٍ وجيزة، فأقول: إنَّ الأدب العربي فيها — ومن مشتملاته المستحدثة صحافته القوية قوة نسبية — يفوقُ بصورة ظاهرة الأدب العربي الذي تاخمه وانسلخ عنه — أي: أدب عصر الانحطاط — فقد ترقَّى فيه النَّظْم والنثر إلى درجة محسوسة؛ إذ تخلص معظمه من التكلف والثقل في المقدمات والاستطرادات، والسجع وأمثاله من البديع اللفظي، ولكن نهضتنا الحاضرة في هذا العصر لا تزال مقصرة بصورة ظاهرة عن عهد المولدين وعهد الأمويين.

ولا شك أنَّ القُطر المصري السعيد بما له من اتساع رقعة وثروة، وكثرة سكان، ومئات الألوف من الجاليات العربية لعدة أقطار، ولكل منها علماء وأدباء وأساتذة؛ أصبح ذا حق اجتماعي بَيِّن في زعامة نهضتنا الأدبية هذه، ولكن هذا الحق المعنويَّ الشريف الذي له — ولا نظن بلدًا عربيًّا ينكره عليه — تُقابلُه واجبات يقتضي منه أداؤها، وأعظمها شأنًا أنْ يقدم الصبغة الأدبية العربية العامة على كل صبغةٍ وطنيةٍ مصرية، فالزعامة الصحيحة تتطلب من صاحبها أنْ يكون فوق الأحزاب والتقاليد والعنعنات، وإلَّا فلا يحسبن نفسه الزعيم الأعلى العام، بل زعيمًا خصوصيًّا لهذا الجيل من الناس، أو لهذا الإقليم من البلدان.

ويليق بي أنْ أختم هذه النبذة في تاريخنا الأدبي بإيراد كلمات مأثورة في الحكم على عدة من متعلقاته، أمَّا الإنشاء فقد قيل بشأنه: «بدئت الكتابة بعبد الحميد، وخُتمت بابن العميد.» وقال الصاحب بن عباد: «إنَّ بلغاء الزمان وفحول منشئيه أربعة: الصابئ، وأبو بكر الخوارزمي، وابن العميد، ولو شئت أنْ أذكر رابعهم لذكرتُه.» يريد نفسه، وهو بهذا الإضمار لم يَدَّعِ لنفسه أكثر من حقها.

وأمَّا الشعر فقد قيل بشأنه في الجاهلية: «أشعرُ الجاهليين امرؤ القيس إذا غضب، وأعشى ميمون إذا طرب، وزهير بن أبي سلمى إذا رغب، والنابغة الذبياني إذا رهب، وعنترة العبسي إذا ركب.» وقيل: «بدئ الشعر العربي بملك، وختم بملك» يريدون امرأ القيس، وأبا فراس الحمداني، وكان العرب يتوسعون في بعض تسمياتهم، فيسمون ملكًا كُلَّ أمير من أسرة مالكة، وعلى ذلك جَرَوْا في تسمية كل من امرئ القيس، وأبي فراس ملكًا.

وقيل: «من روى اعتذارات النابغة، وحوليات زهير، وحكم المتنبي، ومدائح أبي تمام، وتشبيهات ابن المعتز، وخمريات أبي نواس، وزهديات أبي العتاهية، ولطائف كشاجم، وروضيات الصنوبري؛ ولم يخرج إلى الشعر فلا أشب الله قرنه.» وهيهات أنْ يروي أديبٌ هذه الدواوين كلها، فالصحيحُ أنْ تروى منها خلاصاتٌ ومختارات كافية.

وهذه الأقوال التي أوردتها ربما وقع فيها تحريفٌ زهيد عن سهوٍ مني، أو عن اختلاف رواتها الأصليين فيما رَوَوْهُ، وعلى كلا الحالين لا يُعدُّ الفرق جوهريًّا يفسد جوهر القضية. والفائدة التي أتوخاها، ومما يتناقلونه ذكر تسعة من فحول الشعراء اشتهر كل ثلاثة منهم في عهد. فللجاهلية: امرؤ القيس، والنابغة الذبياني، وزهير ابن أبي سلمى، ولعصر الأُمويين: الأخطل، وجرير، والفرزدق، ولعصر العباسيين: أبو تمام، والبحتري، والمتنبي.

الأدب العربي في ما عليه

أمَّا مطاعن الأدب العربي إجمالًا فقد دعاني سياقُ الحديث باللمحة التاريخية في السطور السابقة إلى ذِكْرِ بعضها، وهي: التكلُّف، والإفراط في السجع والجناس، والتغزُّل بالغلمان، وعليَّ الآن أنْ أذكر بقيتها مع تقديم أمثلة عليها جميعًا. فمن تلك المطاعن أيضًا: الغلوُّ، أي: الإفراط في المبالغة، وطول المقدمات والاستطرادات، ونظم قواعد العلوم شعرًا، والإقذاع في الهجاء، والبذاءة في التعبير خارج باب الهجاء، والإفراط في المدح، وتصدير قصائد المدح، والتهنئة بالغزل، والنسيب، والتشبيب، وتحويل الخصومة الأدبية أو المناظرة الأدبية إلى عداوة صريحة، فمن التكلف ما جاء على منوال قول القائل:

لم تحك نائلَك السحابُ وإنما حُمَّتْ به فصَبِيبُها الرحضاء

الرحضاء هو عَرَق المحموم، خاطب الشاعر ممدوحه قائلًا: إنَّ السحاب لم تحك كرمك حين هطولها، بل أصابها الحسد لتقصيرها عنه، فأمرضها وأصابتْها الحُمَّى، وما الماء الذي تسح به إلَّا عرق الحمى! فتأمل هذا التكلف البارد، وهذا الإغراب المضحك، فالبيت يدل على دقة تفكير، وفساد ذوق معًا، ومن هذا القبيل قولُ إبراهيم بن سهل الإشبيلي في وصف جمال محبوبه:

يمثل لي نهج الصراط بوعده فتى جنة الفردوس في طي برده
تغص بمرآه النجوم وربما تموت غصون البان غمًّا بقَدِّه

وأعيد هنا بشأن هذين البيتين ما قلته في بحث أدبي لي قديم، قلت: إنَّ كل هذا العناء بتمثيل صراط يوم الدين في وعد مخلوق آدمي، واشتمال ثيابه على جنة الفردوس تحتها، وغصة النجوم حين تراه لِحسدها إياه، وموت غصون البان غمًّا حين ترى اعتدال قوامه لا يفعل شيئًا في نفس الأديب الناضج؛ لظهور الكلفة عليه، واستصعاب الذهن أنْ يستحضر صورته الحسية. هذا مع أنَّ ناظم البيتين اشتهر بالرقة والسلاسة، ولكن سبحان من جعل لكل قاعدة شذوذًا.

والإفراطُ في السجع أوضحُ وأَشْيَعُ من أنْ يحتاج إلى تمثيل؛ إذ لم يكد ينجو منه كاتبٌ كبيرٌ أو صغير من أدباء المولدين. ولا شك أنَّ كثيرين منهم أجادوه، فجاءوا به راسخًا في موضعه غير متزعزع، وإحكامهم له على هذه الصورة خَفَّفَ سآمَةَ القارئ منه ولكنه لم يُزِلْها؛ لأن القطعة الطويلة من الكلام إذا سُجعت جُمَلُها كلها أَحَسَّ لها السامع ببعض الثِّقَل، ووَدَّ لو تستريح أُذُنه من قسم فيها إلى شيءٍ من الكلام المرسل هذا، ولو جاء سجعها حسنًا فصيحًا. وأمَّا إذا كان ركيكًا فهناك البلاء الذي لا يُطاق، إذا كان من نمط مخاطبة ذلك السيد لخادمه: «من بالباب أيها المهاب …»

إنَّ السجع الطيب في أدبنا العربي كثيرٌ، وأكثرُ منه السجع المتوسط الحسن، وللسجع القبيح زوايا غير قليلة. فمن السجع الطيب ما جاء في أثناء فصل للوزير المهلبي أبي محمد الحسن وزير معز الدولة بن بويه في العراق قال: قد ترامت — بفلان — البلدان والأسفار، ونبت عنه الأوطان والأوطار، وضاقت به الأعطان والأقطار — إلى أنْ يقول: تركت قلبه طافحًا بوجده، ودمعه سافحًا على خده، قد أمرته أنْ يجعل رأيك سراجه، ورسمك منهاجه — ثم يقول: لست غفلًا عن الدهر فتنكر نوائبه، ولا مطيقًا له فتدفع مصائبه، قد تناسخت الأيام قواه، وشذبت الحوادث هواه.

فهذا الكلام المسجع بصورة رشيقة أنيقة؛ مقبولٌ مستحسن، ولكن على شرط أنْ يكون قاصرًا لا يزيد على المثال الذي أوردتُه هنا، فإذا بلغ أضعافه حجمًا كما هي فصول المهلبي وغير المهلبي من كبار المسجعين كالصابئ، وابن العميد، والصاحب، والحريري، والهمذاني، وأمثالهم؛ أتعب الأذن والذهن، ووجد القارئ المتوسط الفهم كثيرًا من فقره جاءت حشوًا أو لغوًا، أو ساقها السجع أنْ تكون مرادفاتٍ لِمَا قبلها بحيث يستغنى عنها. وهذه الزيادة تناقض البلاغة، ويسميها البلغاء إسهابًا، وطالما عهدنا الزيادات في أُمور كثيرة انقلبتْ إلى نقائص.

وقد أُولع المولدون بالسجع إلى حدٍّ صاروا معه يَعُدُّون غياب السجع دليلَ عجز وتقصير، ولو في تسمية كتاب، أو فصل من كتاب، أو قصيدة، أو خطاب، أو نبذة قصيرة.

وهذا الاصطلاحُ في التسمية لا يزال أكثرُنا يجري عليه في العصر الحاضر، مع أنَّ التخلص من أَسْرِهِ أجدرُ بنا وأَدَلُّ على قوة التمييز فينا. ومن ثمَّ بتنا نرى من أسماء الكتب: طِيب العرف في علم الصرف – عقود الجمان في المعاني والبيان – ضوء المشرق في علم المنطق – قطف الزهور في تاريخ الدهور ... إلخ ... إلخ.

ومما سمعت به أنَّ رجلًا من أبناء عصرنا — وقد انتقل إلى رحمة ربه — كان يعد نفسه من المطلعين على اللغة العربية وعلومها، حتى همَّ بتأليف كتابٍ في النحو، فهاتوا حدسكم في التسمية المسجعة التي اختارها له، سماه: «الكتاب الملتقَط في علم النحو فقط»، ونحن نجيز التسمية المسجعة بمثلها قائلين: «الدهر لم يرتكب الغلط، بإخفاء كتاب على هذا النمط.»

وأدعى إلى الغرابة مما ذكر أنَّ رجلًا أراد أنْ يُؤَبِّن صديقًا له اسمه فليمن، وكان المؤبن ضعيفًا حتى في محادثة اعتيادية، فضلًا عن الخطابة، وكل ما يعلمه أنَّ التقفية شرط واجب أداؤه على كل خطيب وكاتب، فقام في الحشد وقال: «أيها السادة، وا أسفاه! مات الكريم الفاضل صديقنا فليمن ... نعم نعم مات حبيب قلوبنا فليمن ... أبجد هوز حطي كلمن.» ثم نزل عن المنبر، وقد أصاب وأظهر خفة روح بسرعة هربه، فلو صبر إلى فقرة ثالثة في تأبينه البليغ لهرب المنبر منه. ويقال — والعهدة على من سمع وروى — إنَّ الخطيب لَمَّا عاد إلى مجلسه بين القوم سأله أحدُهم: ما بالك اختصرت التأبين كل هذا الاختصار؟ فأجابه: خير الكلام ما قلَّ ودلَّ، ولم يمل.

وأدهى من هذا أنَّ رجلًا من أدعياء الأدب كان يتمدح ويقول: إنه سريع الخاطر في كل قافية أرادها أو أُريدت منه، ولو كانت صعبة مستعصية، فقال له بعض خِلَّانه ذات يوم: هات لنا شيئًا من القوافي على حرف الثاء، ففكر هنيهة، ثم قال: «لم أزل على فعل الخير حثاثًا، وناقتي ترعى من البيداء فيصومًا وجثجاثًا.» ثم ارتج عليه فتوقف فتضاحكوا، وقالوا: أثلث، فقال: «وأم عمرو طالق ثلاثًا» يريد بأم عمرو امرأته. فطلقت منه، وأقبل أهله وأهلها يلومونه ويقولون له: ويحك ما ذنبها إليك وكانت ساعة طلقتها تخدم بيتك وتنظفه، وتعد طعامًا لك ولأولادك، فأجابهم: بل الذنب ذنبها لا ذنبي، فلماذا استهدفت للخطر ووقفت في وجه قافيتي.

وأمَّا تزاحم الجناس والتكلُّف فيه فهو أيضًا كثيرٌ في آثارنا الأدبية، فليس من الحسن أنْ يقال مثلًا:

أما لك عن صد أمالك عن صد لظَلمك ظلمًا منك ميل لعطفة

وفي البيت تقديم وتأخير في غير مواضعهما مما جعله معقدًا وعرًا، كل ذلك إكرامًا لخاطر المجانسة بين أَمَا لك — أي: أليس لك — وأمالك من الفعل أَمَالَ. وبين صد وصد بمعنى عطشان، وبين ظلم بالفتح — أي: ريق — وظلم. وحل البيت نثرًا على وجه صحيح يكون هكذا: أما لك ميل عن صد صب ظلمته وهو صد إلى ظلمك — أي: متعطش لريقك.

وأزيدكم علمًا أنَّ البيت لرجل عظيم من أشعر شعرائنا، وأقدرهم في صناعة الكلام، وحسن سبكه، وأعجبهم توفيقًا في أنواع البديع، لا سيما الجناس والطباق أريد به عمر بن الفارض، ولكن إفراطه في هذه الأنواع قد يُلجئه إلى ما نذكره. هذا شأنه في إفراطه، فما القول فيمن دونه من الأدباء إذا استرسلوا إلى مثل هذه الزخارف اللفظية، وأين موقع الجناس في البيت المذكور من حسن موقعه في الأبيات التالية للفارض نفسه في قصيدته التائية الكبرى، المسماة نظم السلوك؟ قال أحسن الله إليه وإلينا بأنفاسه:

نعم بالصبا قلبي صَبَا لِأحبتي فيا حبذا ذاك الشذا حين هبت

إلى أنْ يقول:

وقالوا جرت حمرًا دموعك قلت مِنْ أمور جرت في جانب الشوق قَلَّتِ
نحرت لضيف الطيف في جفنَي الكرى قرى فجرى دمعي دمًا فوق وجنتي

ومنها قوله:

وأبعدني عن أربعي بعد أربع شبابي وعقلي وارتياحي وصحتي
فلي بعد أوطاني سكونٌ إلى الفلا وبالوحش أُنسي إذ من الأُنس وحشتي

ومن النكات المروية بشأن الجناس أنَّ أميرًا كان شديد الولوع به، ففكر ذات يوم أنه يمكن إيراد جناس تام بين قم فعل أمر من قام، وقم اسم بلدة في مملكته، وما عتم أنْ عزل قاضيًا كاتبًا إليه: «أيها القاضي بقم، قد عزلناك فقم.» فقال القاضي: والله ما عزلني إلَّا محبة الأمير للتجنيس والقافية. فتأملوا تكلفًا خبيثًا في القول يعزل قاضيًا فاضلًا من منصبه، ويطلِّق امرأة بريئة من بعلها.

ومن دواعي الدهشة والاستغراب أنَّ هذه التزويقات اللفظية التي ليس تحتها طائل كبير استهوتْ كثيرين من جبابرة العقول بين أدباء العرب، وقادتْهم إلى ميدانها، وفي جملتهم شاعرُ الفلاسفة وفيلسوف الشعراء أبو العلاء المعري؛ فإن تقيده بنوع الالتزام في القوافي لا يخرج عن كونه نوعًا من تلك الأنواع اللفظية. وقد بنى عليه معظم شعره، فوصل إلينا ديوانه «اللزوميات» مسمًّى بهذا النوع، ولو لم يتقيد به لَأراح نفسه من عناء كبير، ولَجاء تعبيره أرسخَ، وأسلسَ قيادًا في مواضع كثيرة. ولَمَا خسر الأدبُ العربي بهذا الانعتاق شيئًا من الفائدة واللذة.

وأمَّا التغزل بالغلمان فمن أمثلته قول الشريف البياضي:

أيام نرجسنا العيون وودرنا — غض الخدود وخمرنا الأرياقُ
ولنا بزوراء العراق مواسم — كانت تقام لطيبها أسواقُ
أين الأغيلمة الألى لولاهمُ — ما كان طعم هوى الملاح يذاقُ
شَنُّوا الإغارة في القلوب بأعين — لا يُرتجى لأسيرها إطلاق

وقول كمال الدين بن النبيه:

رنا وانثنى كالسيف والصعدة السمرا — فما أكثر القتلى وما أرخص الأسرى
خذوا حذرًا من خارجي عذاره — فقد جاء زحفًا في كتيبته الخضرا
غلام أراد الله إطفاء فتنةٍ — بعارضه فاستؤنفت فتنة أُخرى
أغالط عُذَّالي إذا ذكروا له — حديثًا كأني لا أُريد له ذكرا
وأُصغي إذا جاءُوا بغير حديثه — إليهم ولكني أذوب به فكرًا
نبي جمال كل ما فيه معجز — من الحسن لكن وجهه الآية الكبرى
وظامئة الخلخال إن وشاحها — فهذا قد استغنى وهذا اشتكى فقرا

لها معصم لولا السوار يصده إذا حسرت أكمامها لجرى نهرا
دعتني إلى السلوان عنه بوصلها وما كنت أرضى بعد إيمانيَ الكفرا
بأي اعتذار أكتفي حسن وجهه إذا شغلتْني عنه غانية عذرا

ولكن كثيرين من القوم خالفوا هذا المذهب مفضلين الجمال الأُنثوي، حتى قال قائلهم:

نظرت إليها والمليح يظنني نظرت إليه لا ومبسمها الألمي
ولكن أعارتْه التي الحسن ملكها صفات جمال فادعى ملكها ظلما

وقريب من هذا ما رُوي من أنَّ أحد الخلفاء، وقيل: هو المأمون العباسي غضب على إحدى حظاياه فانتهرها وطردها من حضرته، فذهبت إلى حجرتها مغتمة منكسرة الخاطر، ثم رأى سيدها أنَّ عقوبتها كانت أشد مما تستحق، فأرسل إليها من قِبَلِهِ غلامًا يجبر خاطرها، ويبشرها برضى الخليفة عنها، وأبطأ الغلام بالعودة إلى سيده، فلما عاد قال له سيده:

بعثتك مرتادًا إليها بحاجةٍ فأخلفتني حتى أسأت بك الظنا
أرى أثرًا منها بعينيك لم يكن لقد سرقت عيناك من وجهها حسنا

ومما فيه إشارة إلى المذهب الأول مذهب أصحاب الغزل المذكر قول أحدهم، وفي عجز البيت الثاني تورية لطيفة:

مهفهفان لعبا بالنرد أنثى وذكرْ
قالت أنا قمرته قلت اسكتي فهو قمرْ

وأصرح من ذلك قول بدر الدين بن الدماميني:

تحدث ليلُ عارضِه بأني سأسلوه وينقطع المزارُ
فأقبل صبحُ طلعتِه ينادي كلام الليل يمحوه النهارُ

وفوقه في الصراحة وسوء الاندفاع قول الآخر:

قالوا التحى وستسلو عنه قلت لهم   هل يحسن الروض ما لم ينبت الزهر
هل التحى طرفه الساجي فأهجره   أم هل تزحزح من أجفانه الحور

وقد رد على هذا الاندفاع من قال:

يقولون ماء الحسن من تحت شعره   على حاله الأولى وذاك غرورُ
ألسنا نعاف الماءَ من أجل شعرةٍ   إذا سقطت في الماء وهو نميرُ

وأمَّا الإفراط في المدح فمن أمثلته قول المتنبي:

لو الفلك الدوار أَبْغَضْتَ سَيْرَهُ   لَعَوَّقَهُ شيءٌ عن الدوران

ولكن صيغة القول عن طريق الاشتراط والافتراض خفَّفت قبح هذا الغلو، فهو خير من قول متنبي الغرب ابن هاني الأندلسي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

والغلو أكبر عيوب هذا الشاعر المقتدر، ولولاه لبلغ في الأدب مرتبة أجمل وأعلى.
وأمَّا البذاءة في التعبير فمرجعها في معظم مواقعها إلى ما لا خير فيه من ذكر متعلقات الفسق والفجور ولوازمهما، ومما جاء في هذه المزالق على صورة خفيفة ولكن تركها، كان خيرًا وأشرف قول المتنبي:

إني على شغفي بما في خمرها   لأعف عما في سراويلاتها

فإن قافية البيت هجنته كله، مع أنَّ معناه حسن شريف لو اختير له أُسلوب شريف، وأشنع من ذلك تعبيرًا قول الأبيوردي:

قضت عُنَّة التمييز والفهم في الورى   بتعنيس أبكار القريض الكواعبِ

خـرائـد شـعـري يُـفـتـرعـن إغـارةً   ويُـمـلـكـن سـبـيًـا كـالإمـاء الـجـلائـب

العنة هي العجز في الوظيفة التناسلية، والتعنيس عدم التزويج، والافتراع افتضاض البكارة.

وعلى هذا المنوال قال في الخمرة ومجلسها غيرُه، وأظنه صفي الدين الحلي — إذا لم تَخُنِّي الذاكرة:

عذراء وَاقَعَها المزاج أما ترى   مـنـديـل عـذرتـهـا بـكـف سـقـاة

أراد تشويقًا إلى ذلك المجلس وإغراء به، ولكنه لَمَّا ذكر الوقاع وهو الفعل الشنيع، ثم شفعه بمنديل العذرة أقرف السامع أيما إقراف، وزهَّده أيما تزهيد، وأبعد ميله عن تلك المباءة الموبوءة وأهلها ألف فرسخ، لكيلا يمس كأسهم وطاسهم، ويمس منديل العذرة شفتيه.

ومن تعابيرهم البعيدة عن اللياقة والاحتشام قولهم: كانت فلانة تحت فلان — أي: زوجًا له — وقد كان للقوم عذر، أو شبه عذر في هذا التعبير وأمثاله؛ لقرب عهدهم من عهد الجاهلية، وقرب بيئتهم من بيئة البدو، وأمَّا نحن أبناء العصر الحاضر فلا عذر لنا، ولا رائحة عذر فيما ذكر.

ومن تلك المطاعن الإقذاع في الهجاء — أي: الإفراط في قبح اللفظ — مع أنَّ الهجاء بتهكم أدبي أوقع وأوجع، قال الجاهلي:

دع الـمـكـارم لا تـرحـل لـطـيـتـهـا   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

الطاعم الكاسي — أي: الآكل المكتسي — وكان الأخطل في تمدُّحه يقول: ما هجوت أحدًا قط بما تستحي منه العذراء أنْ تسمعه أو تنشده، وهي في خدرها. ومن الهجاء المؤلم مع تنزهه عن فحش اللفظ قول بعضهم:

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم   حسنت مناظرهم لقبح المخبر

وقول الآخر:

خلقوا وما خلقوا لمكرمة　　فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يدٍ　　فكأنهم رزقوا وما رزقوا

وقول غيره وقد أراد المرور في أثناء سفره بمنزل صديق له في إحدى المدن، فلما شعر الصديق بقدومه تغيب عن منزله عمدًا، واعتذر الخدم إلى الضيف بما حضرهم من كلام ملفَّق، فانتظره عبثًا نحو ساعة، ثم انصرف بعد ما ترك له رقعة فيها هذان البيتان:

يا تاركًا من بخله بيته　　وهاربًا من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزادٍ له　　فارجع وكن ضيفًا على الضيف

وأمَّا الهجاء المقذع الذي لا يخرج عن كونه شتمًا صريحًا، فمنه قول القائل:

هو الكلب وابن الكلب والكلب جده　　ولا خير في كلبٍ تسلسل من كلب

وقال بهاء الدين زهير:

فإذا ذكرتك في الكلا　　ب حططت من قدر الكلاب

كأنه نظر إلى قول من قال قبله هاجيًا بني باهلة:

ولو قيل للكلب يا باهلي　　عوى الكلب من لؤم ذاك النسب

وما أبلغ ذلك العواء الذي هو تمامًا بمقام احتجاج عند أهل السياسة، وسحب بروتستو عند التجار.
وقال بهاء الدين أيضًا:

لعن الله صاعدًا　　وأباه فصاعدًا
وبنيه فنازلًا　　واحدًا ثم واحدًا

وقال آخر:

نحا بك لؤمك منحى الذبا ب حمته مقاذيره أنْ ينالا

وأمَّا ما وراء هذه المنزلة من التقبيح في الهجاء، فالأولى ترك أمثلته عادلين عنه إلى الهجاء الأدبي اللطيف في أذن سامعه، وإنْ لم تستلطفه أذن المهجو، ومنه قول الشيخ ناصيف اليازجي في بخيل:

قد قال قوم إنَّ خبرك حامض والبعض أبدى بالحلاوة حكمه
كذب الجميع بزعمهم في طعمه من ذاقه يومًا ليعرف طعمه

وقلت أنا في رجل جافي الطبع والقول:

جفاء الكل ممزوج بلين وهذا عنده محض الجفاء
كأن الناس من ماء وطين وجبلته بطين دون ماء

وأمَّا تصدير قصائد المدح بالغزل والنسيب والتشبيب، فأمر في منتهى القبح والغرابة، إذ أي علاقة لغرامك يا فلان، أو شوقك إلى وطنك، أو تأسفك على إطلال أحبابك بما تريده من مدح فلان أو تهنئته، وإنما هي عادة درج عليها بدو الجاهلية لإظهار ما تحملوه وضحوا به في سبيل الوصول إلى الممدوح؛ وذلك لأجل هز أريحيته، أو إظهار ولوعهم به، وحسن ظنهم فيه، وهذا العذر ليس بالعذر الكافي لهم في اتخاذ تلك العادة المستهجَنة، ولكن على كل حال يسمى عذرًا، فإذا أضفنا إليه عدم استقصاء ابن البادية لشروط التأدُّب والاحتشام مصداقًا لقول أبي تمام:

فإذا كشفتهم وجدت لديهمِ كرمَ النفوس وقلة الآدابِ

مع تعوُّد البدوي إطلاق لسانه بما يكنه جنانه من فراق أهل وأحباء وشوق إليهم، إذا أضفنا ذلك إلى العذر السابق لم نستنكر على الأعراب اتخاذ تلك العادة، ولكن ما عذر الحضري فيها، ولا سيما ابن القرن العشرين، وربما كان هو والممدوح في بلدة واحدة، بل في شارع واحد، فما معنى مشقة السفر التي عاناها، والأشواق التي قاساها، والمطية

التي أضنتْه وأضناها، وقد نبهت على قبح هذه العادة وأنا في القاهرة منذ أكثر من ثلاثين سنة، حين انتقدتها على ثلاثة من كبار الشعراء هناك استعملوها في معارضات شعرية بينهم لحادثٍ معين.

وأمَّا نظم الأراجيز في قواعد وأحكام بعض العلوم، كالصرف، والنحو، والبيان، والمنطق، وبعض حوادث التاريخ، فوجه التعسف والتكلف فيه أوضح من أنْ يحتاج إلى بيان. والحمد لله على تخلص نهضتنا من هذه العادة، كما تخلصت من غيرها.

وأمَّا طول المقدمات في كتابات كثير من أدباء العرب، فهو داخل في أنواع التكلف أيضًا مما تقدم ذكره، ومثلها الاستطرادات إذا كثرت وطالت، وهو أمر يدعو إلى إتعاب الذهن والذاكرة في وصل كل مطلب بأخيه، بعد ما تكون تلك الاستطرادات قد فصلت بينهما، ومن الاستطرادات التي شوهت محاسن ما اكتنفها، ما ورد منها في كتاب «كليلة ودمنة» فلولا طولها وكثرتها هناك، وتداخل الأغراض بعضها في بعض بسببها، لجاء الكتاب تام الحسن والبهاء.

وأمَّا الخصومة والمنافسة فحقها ألَّا تتعدى دائرتها، فلا تتحول إلى عداوة ومناكدة ومكايدة، وجعل الأبيض أسود، والأسود أبيض مما نراه وقع، ولا يزال يقع في كثير من الخصومات الأدبية بين أدباء العرب، ومنها نقائض جرير والأخطل، وجرير والفرزدق، وما كان أجدر هؤلاء القوم أنْ يتأدبوا بأدب سلفهم الصالح مما أجمله بكلمة مأثورة حضرة الخليفة عمر بن الخطاب، حيث قال: «إني لأغضب ولا أقول إلَّا حقًّا، وإني لأرضى ولا أقول إلَّا حقًّا.»

الأدب العربي في ما له

إنَّ للآثار الأدبية في لغتنا عدة مزايا يمكننا أنْ نحصر أعظمها شأنًا فيما يلي: الفصاحة ومتانة السبك – حسن الإيجاز – حسن الإطناب – غزارة المادة في الحِكَم والأمثال – مظاهر الحماسة والحمية والأريحية – المراثي – الصراحة والجرأة – الإشارة والكناية – المداعبة وخفة الروح. ولا شك أنَّ المزايا التي تُحسب للأدب العربي تفوق في مقدارها وتأثيرها أضعاف المطاعن التي تؤخذ عليه.

أمَّا الفصاحة ومتانة السبك فمن أمثلتها قول زهير بن أبي سلمى في مدح آل غسان:

على مكثريهم رزق من يعتريهمِ	وعند المقلين السماحة والبذلُ
إذا قام منهم قائل قال قاعد	رشدتَ فلا غبن عليك ولا خذلُ
وما يكُ مِن خير أتُوه فإنما	توارثه آباءُ آبائهم قبلُ
وهل ينبت الخطي إلَّا وشيجه	وتغرس إلَّا في منابتها النخلُ

وقول البحتري في الخليفة المتوكل على الله: وكان علماء الشعر يلقبون شعر البحتري سلاسل الذهب؛ لروائه وحسن سبكه:

ولما بلغنا سدة الأذن أُخرت	رجال عن الباب الذي أنا داخله
فأفضيت من قرب إلى ذي مهابة	أقابل بدر التم حين أقابله
بداليَ محمودَ النقيبة شمَّرت	سرابيله عنه وطالت حمائله

وقول ابن طثرية من شعراء ديوان الحماسة الذي جمعه أبو تمام:

فديتك أعدائي كثير وشقتي بعيد وأنصاري لديك قليل
وكنت إذا ما جئت جئت بعلة فأفنيت علَّاتي فكيف أقولُ
فما كل يوم لي بأرضك حاجةٌ ولا كل يوم لي إليك رسولُ
صحائفُ عندي للعتاب طويتُها ستنشر يومًا والعتاب طويلُ
فلا تحملي إثمي وأنت ضعيفةٌ فحمل دمي يوم الحساب ثقيل

وقول القائل:

وأشد ما لاقيت من ألم الهوى قرب الحبيب وما إليه وصولُ
كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمولُ

وقول الآخر:

أحب الفتى ينفي الفواحشَ سمعُه كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسط أذًى ولا مانع خيرًا ولا قائل هُجرا

وهجر الكلام بضم الهاء، هو السخيف البعيد عن الصواب.
وقول بعضهم يصف موقف وداع:

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا وشهدت حين نردد التوديعا
لعلمت أنَّ من الدموع محدثًا ورأيت أنَّ من الحديث دموعًا

وقول إسماعيل باشا صبري متحسرًا على الصبا والصبابة:

أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمنًا حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

وقول ابن نباتة المصري واصفًا الخمر:

كأنها في أكف الطائفين بها نار تطوف بها في الأرض جنات
تذكرت عند قوم دوس أرجلهم فاسترُجعت من رُءُوس القوم ثارات

ومن الإنصاف أنْ نلتفت مع إيراد الأمثلة الكثيرة من شعر رجال العرب إلى شيءٍ من شعر نسائهم، والذي عَنَّ لي الساعة من أمثلة الفصاحة، وحسن السبك أبياتٌ لولادة ابنة المستكفي بالله — أحد ملوك الطوائف في الأندلس — وهي التي قال فيها الشاعر المجيد الوزير ابن زيدون قصيدته الشهيرة: «أضحى التنائي بديلًا من تدانينا.» قالت ولادة:

لحاظكم تجرحنا في الحشى ولحظنا يجرحكم في الخدودْ
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا فما الذي أوجب جرح الصدود

وقالت:

ولما أبى الواشون إلَّا فراقنا وما لهُمُ عندي وعندك من ثار
غزوتهُمُ من ناظريك وأدمعي وأنفاسنا بالسيف والسيل والنار

ومن فصيح القول الممتاز بهاءً وصفاءً قول تماضر السلمية المعروفة بالخنساء، وهي مخضرمة إذ أدركت الجاهلية والإسلام، قالت في جاهليتها ترثي أخاها صخرًا:

وإنَّ صخرًا لحامينا وسيدنا وإنَّ صخرًا متى نشتو لنحار
وإنَّ صخرًا لتأتَمُّ الهداة به كأنه علم في رأسه نار
لم تلقه جارة يمشي بساحتها لريبة حين يخلي بيته الجار

ويقال: إنَّ أبا منصور الحلاج المتصوف الشهير كان متَّهمًا في دينه لبوادر أقوال منه، يحملها كثيرون محمل مذهب فلسفيٍّ يقول به، فلما حضرتْه الوفاة قال له بعض من حواليه انطق بالشهادة، فرفع وجهه نحو السماء وقال:

إنَّ بيتًا أنت ساكنه ليس محتاجًا إلى السرج

وقلت أنا في جملة قصيدة طويلة واصفًا جيش الدستور العثماني، وزحفه على الأستانة تحت قيادة محمود شوكة باشا سنة ١٩٠٨:

وما أنسَ لا أنسَ العرمرم زاحفًا ... إلى الموت كي يحيي شعوبًا تناسبهْ
وقد خفقت أحشاؤها وبنوده ... كما برقت أبصارها وقواضبهْ
وكانت ترى أنْ كلما شن غارةً ... تزحزح قطب الظلم عنها وجَانَبَهْ
إلى أنْ دهى قصرًا دهى ملك أمة ... وقوض عرشًا قوض العدلَ صاحبُهْ
وخلى دهاقين الوغى حائري النهى ... بنصر شموس رَوَّضَتْهُ تجاربهْ
فهل كان مصبوبَ القضاء خيولهُ ... وهل كان من جند السماء كتائبهْ
وما ذلك النصر المبين وإن سما ... يعادل ما قد أَمَّلَتْنا عواقبهْ
فثمَّ قضاء الدهر دينًا لأمة ... يكاد يزول الدهر وهي تطالبهْ

ثم أذكر حالة قصر السلطان المخلوع المعروف بقصر يلدز، وأنتقل منه إلى وصف موقف الوفد الاتحادي الذي أقبل على السلطان ينذره بأن الأُمَّةَ خلعتْه قائلًا:

ألا مَنْ رأى القصر الذي شَتَّ شملُه ... حواسده أَمْسَيْنَ وهي نوادبه
وراحت غوانيه حيارى ذليلةً ... وقد حزن دهرًا أي عز تغالبه
تطاول حتى لا علوَّ فمذ عنا ... تطأمن حتى طاولتْه مساربه
حوى ألف كنز لم تؤيد بهاءه ... لأن بهاء الحق كان يجانبهْ
ولم يهن بانيه برحب دياره ... فما كان منه الصدر رحبا جوانبه
إلى صاحب التاج الرفيع مقامه ... إلى ابن السلاطين المهيب مواكبه
إلى مالك الأعناق غير محاسَب ... إلى حابس الأرزاق لا من يحاسبه
إلى الواسع النعمى إلى الهائل الدها ... إلى شاغل الدنيا فليست تغاضبه
أتى الوفدُ عالي الصوت والهام عابسًا ... يقول اخلع الملك الذي أنت ناكبه
وكان وراء الوفد جيش وأمة ... وجرأة يأس معجزات عجائبه
فأذعن جبار الملوك وأرعدت ... فرائصه واستأذن الجفن ساربه
وحيا بكلتا راحتيه تضرعًا ... ليبقي له ذل الحياة معاقبه
وكان زمانًا أنْ أشار بأصبع ... فتلك حياةٌ أو هو الموت جالبه

فما باله إذ هدَّموا عز ملكه أضاع اختيارًا عز نفس تصاحبه
ألم يبق في حد الرجال وإن هوى وما هكذا فعل الرجال يناسبه
ولكنما عبد الحميد طلاسم ومجمع أضداد يحار مراقبه

ومن فصيح المنثور أنَّ أبا تمام أنشد أحد الوزراء قصيدة أعجبتْه فانتصب على قدميه، وقال: لا أسمع هذه العروس إلَّا وأنا واقف، فأجابه أبو تمام: لو أنها من حور الجنان لكان قيامك أوفى صداق لها.

واتفق أنَّ أحد أكابر القوم أراد تبكيت أبي تمام ذات يوم، فقال له وهما مع جمهور من الناس في مجلس الخليفة — وكان أبو تمام قد أنشد هناك قصيدة: لِمَ لا تقول من الشعر ما يفهم، فأجابه: وأنت لِمَ لا تفهم من الشعر ما يقال، فأفحمه.

ومن ذلك أنَّ المأمون الخليفة العباسي دخل على الملكة زبيدة بعد مقتل ابنها الأمين في أثناء الحرب بينهما، وكان المأمون قد أمر برد كرامتها وأموالها إليها، فرآها تبكي، فعطف عليها وقال: كفي بكاءك، فسأكون لك ابنًا عوض ابنك، فقالت: كيف لا أبكي ولدًا أكسبني ابنًا مثلك.

ويقال: إنَّ شابًا رأى والده المريض قد ألح عليه المرض حتى يئس الأطباء من شفائه، فقال له: يا أبي ما تشتهي؟ فأجابه: أنْ اشتهي. أي: أنْ تعود لي قوةٌ على الشهوة.

وسئل الأصمعي: لِمَ لا تقول الشعر وأنت من كبار علمائه؟ فقال: لأن ما أريده منه لا يأتيني، وما يأتيني منه لا أريده.

وأمَّا الإيجاز فمن الأمثلة على محاسنه: أنَّ أحد الخلفاء رأى قائدًا من قواد جيشه، وقد طعن في السن، فقال له: لقد كبرت، فأجاب: في طاعتك يا أمير المؤمنين، قال: وإنَّ فيك لبقية. فأجاب: هي لك يا أمير المؤمنين، قال: وإنك لَجلد شديد، فأجاب: على أعدائك يا أمير المؤمنين.

وسئل ذو الوزارتين الصاحب بن عباد، وكان من أكابر المنشئين العارفين بمحاسن السجع فيه على طريقة تلك العصور: ما أحسن السجع؟ قال: ما خف على السمع، قالوا: مثل ماذا؟ قال: مثل هذا.

ومرض أبو الطيب المتنبي وهو في مصر، فجعل صديقٌ له مخلصٌ يعوده كل يوم، ويحسن تفقُّده، والعناية به، ومجالسته، ومؤانسته، فلما أبلَّ الشاعر — أي: قارب الشفاء — أمن عليه صديقه، وانقطع عن العيادة، فكتب إليه شاعرنا العظيم: «وصلتني

— وصَلَكَ الله — معتلًا، وقطعتني مبلا، فإن رأيت ألَّا تحبب العلة إليَّ، وتنغص الصحة عليَّ، فعلت إنْ شاء الله.»

وظلم أحد العمال رجلًا من رعاياه، فشكاه المظلوم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر: «اكفني أمره وإلَّا كفيته أمرك.» وكتب إلى عامل آخر بلغه عنه ما يسوءُه: «إذا دعتك قدرتك إلى ظلم من تحتك، فاذكر قدرة من فوقك عليك.»

وقال الإمام علي بن أبي طالب: «الناس من خوف الذل في ذل، ومن خوف الفقر في فقر» وروي عنه — وقيل بل عن الإمام عمر — هذه الكلمة الباهرة الحكمة: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم.»

وقدم الفرزدق على الإمام الحسين أحد السبطين وهو في العراق، فسأله الإمام عن الشام وما جاورها، ورأي أهلها فيه، فأجابه: «الناس معك، والسيوف عليك، والنصر في السماء.»

ومما اشتهر ببلاغة الإيجاز توقيعات الخلفاء والأمراء والوزراء، لا سيما في صدر الدولة العباسية.

ومن طيب الإيجاز في الشعر أنَّ أميرًا شجاعًا أراد الخطابة في قومه فارتج عليه، فنزل عن المنبر وهو يقول:

إذا لم أقمْ فيكم خطيبًا فإنني ... بسيفي إذا جد الوغى لَخطيب

فقال أحد الحاضرين: إننا إلى أمير فَعَّال، أحوج منا إلى أمير قَوَّال.

ومما أراه من الإيجاز السهل الممتنع في لِينِ عبارته، وقوة إشارته، إجمال مدهش لمذهب التفاؤل والاستبشار، وحسن الظن في هذه الحياة بقول القائل:

سألت الأرض لِم كانت مهادًا ... ولِم جعلت لنا طهرًا وطيبا
فقالت غير ناطقة لأني ... حويت لكل إنسان حبيبا

وأراد جماعة من الأدباء التمتع بنزهة ومجلس أنس في عيد الفطر المبارك، فكتب أحدهم إلى صديق لهم متغيب يدعوه إلى مشاركتهم:

شهر الصيام تولى ... وشهر شوال هلا

وقد حضرنا جميعًا فإن حضرت وإلَّا

وقلت أنا عن لسان بعضهم في هدية بعثت بها إلى أحد الكبار:

هذي إليك هديتي محقورة في ذاتها
لكنها محمودة في نبل مدلولاتها
الود والإخلاص والتـ ـكريم من أدواتها
ترجو المعزة بالقبو ل لدى حماك فهاتها

وأمَّا الإطناب فإن محاسنه لا تقل عن محاسن الإيجاز روعةً وبهجةً، ولا تنقص عنها في الدلالة على سلامة ذوق الأديب، وقوة طبعه، وفيض قريحته، بل إنَّ المتعة بمحاسن الإطناب أَوْفَى وأشفى من المتعة بمحاسن الإيجاز.

وهذا الفرق نتيجة طبيعية لما في الإيجاز من قِصَر وما في الإطناب من طول، والأدب العربي عامرٌ بآثار طيبة لكلا الطرفين. ومن الإطناب الطيب في شعرنا القديم ما قاله أبو حية النميري يصف فتًى تعرض لمأتم — أي: مجتمع نساء — فإن المأتم في الوضع اللغوي هو مجتمع النساء في أي أمر كان، ثم غلب الاصطلاح على تخصيصه بالحزن — وكانت بين النساء فتاةٌ ممتازة حسنًا ودلالًا، فلم يُبَالِ بها مما غاظها وصويحباتها، وجعلها تجد في فتنته، والكَدِّ في كيده، وسرعان ما أفلحت، وهذا هو النظم:

رمته فتاةٌ من ربيعة عامر نئوم الضحى في مأتم أي مأتم
فجاء كغصن البان لا متباينًا ولكن بسيما ذي وقار وميسم
فقلن لها سرًّا فدنياك لا يرح سليمًا وإنْ لم تقتليه فألمي
فألقت قناعًا دونه الشمس واتَّقَتْ بأحسن موصولين كفٍّ ومعصمِ
وقالت فلما أفرغت في فؤاده وعينيه منه السحر قالت له قمِ
فود بجدع الأنف أو إن صحبه تنادوا فقالوا في المناخ له نمِ
وراح ولم يعلم أفي ساعةِ الضحى تروَّح أم داجٍ من الليل مظلمِ

ومن حسن التَّأَنُّق في الإطناب قول ناصح الدين الإرجاني:

وآخر عهدي يوم جرعاء مالك بمنعرج الوادي وإظعانهم تحدى
ولما دنت والستر مرخى ودونها غيارى غدت تغلي صدورهم حقدًا
تقدمت أبغي أنْ أبيع بنظرة إلى وجهها روحي لقد رخصت جدًّا

ومن جيد الإطناب ما ذكره أبو سعيد الرستمي أحد الشعراء المولدين في قصيدة له باسطًا حالة غريبة لمحب مع ركب فيهم حبيبته، وهم يجهلون كُنْهَ أمره، وإنْ كانوا يرونه يسير لسيرهم، ويقف لوقوفهم، ويتطوع لخدمتهم بكل ما يستطيعه، حتى ظنوه فقيرًا سائلًا ينتظر فضلات زادهم ليلتهمها، وهذا الذي قاله أبو سعيد:

إذا نزلوا أرضًا رأوني نازلًا وإنْ رحلوا عنها رأوني راحلا
وإنْ أخذوا في جانب مِلْتُ آخذًا وإنْ عدلوا عن جانب مِلْتُ عادلًا
وإنْ عرفوا أعلام أرض عرفتُها وإنْ أنكروا أنكرتُ منها المجاهلا
وإنْ عزموا سيرًا شددتُ رحالهم وإنْ عزموا حلًّا حللت الرحائلا
وإنْ وردوا ماء حملت سقاءهم أو انتجعوا غيثًا حدوت الرواحلا
يظنون أني سائل فضل زادهم ولولا الهوى ما ظنني الركب سائلا

وهذا البيت الأخير في الأنفة الكامنة يضرب عنها صاحبها صفحًا في سبيل غرامِهِ، يذكرني بيتًا لقيس بن الملوح العامري المعروف بمجنون ليلى، قال:

يعدونني مجنون عامر في الهوى ولولا هواها ما كنت سيد عامر

وقد أراد قيس في موقف آخر التنصل من تهمة الجنون قائلًا:

يقولون مجنون يهيم بذكرها فو الله ما بي من جنون ولا سحر
إذا ما أردت الشعر في غير حبها أبى — وأبيها — أن يطاوعني شعري

وأمَّا الإطناب الطيب في شعر المعاصرين، فمن أمثلته التي تحضرني الساعة ما قاله الشيخ إبراهيم الحوراني ذاكرًا موقف فراق، وإشارة الحبيبة له إشارة توديع بمنديل كف كثير الألوان، غير ناسٍ وصفَ السفينة وسيرها، قال:

ما أنسَ لا أنسَ التفاتتها وقد ... عبث الفراق بشملنا المجموع
وغدت تلوح للعميد إشارة ... بمدبج بهج كزهر ربيع
منديل كف عِطْرُهُ من جبهة ... تندى بلمحة عاشق ممنوعِ
يعلو ويخفق في الهواء كأنه ... علم على جبل أشم منيعِ
ما كان أشبهه بمهجة صبها ... لولا سلامته من التقطيع
جرت السفينة بالبخار ونارها ... جمر الحشى والماء لج دموعي
فحسبت أنَّ أضالعي ألواحها ... ونسيت أني قد فقدت ضلوعي

ومما قلته أنا أيام شبيبتي، وفيه إطناب ظاهر وتفصيل، قصيدة عنوانها «ملتقى حبيبين، بين رغبة ورهبة» وهذه أوائلها:

أتته بليل وهي خافقة القلب ... محيرة بين الطهارة والحب
تسير بخطو هادئ متقارب ... كأن نسيم الليل يشعر بالذنب
إذا أبصرت شيئًا جمادًا تخاله ... يراقبها حتى تذوب من الرعب
فلما التقته أطرقت لاضطرابها ... وقد أوشكت أنْ تشتكي لذة القرب
فما زادها الإطراق إلَّا ملاحة ... وما كان إلَّا فتنةَ المغرم الصب
وإطراقة المحبوب خدعة ذلة ... وفي طيها آي المعزة والعجب
تصوب عينيها إلى الأرض والذي ... يحس به تصويب سهم إلى القلب
لحاظ مراض تسلب المرء لبه ... ويخفرها طهر يرد إلى اللب

إلى أنْ أقول:

وحصر عليه القلب يحنو لأنه ... فقير مقيم بين جارين في خصب
وقدٌّ رشيق تشتهي النفس شربه ... لو انَّ غصون ألبان تصلح للشرب
وكان الدجى في آخر العمر والصبا ... من الشرق تسري بالسلام إلى الغرب

وضوء هلال حول ظل كجبهة ووجه، أحاطا بالحواجب والهدب
وقد رقصت أغصان غاب وصفقت وقام هدير النهر في ساحل رحب
هناك ابتغي الألفان تبريد غلة فلله من شكوى ولله من عتب
أفاضا كما شاءا بشرح صبابة وأمثال هذا الشرح ليست من الكتب
وأمثال هذا الشرح أشهى من الكرى وألطف من مسرى النسيم على العشب
وما كان إلَّا رقة طي عفة فإن تحسبا ذنبًا فلا بأس في الذنب

وأمَّا الحكم والأمثال فقد اشتهرت لغتنا بها، وامتازت على وجه خاص، وفاضت بهذا المطلب كتبها في كل عصر من عصورها، والحكم أشرف أبواب الشعر والنثر؛ لأنها ألصقُ بالعقل والفهم من كل الأبواب. والأمثال عند كل أمة تُحسب عصارة عقولها، ومرآة أدبها، والزبدة الصافية من تجاريبها في هذه الحياة. وهي عندنا قسمان: قسم مأخوذ عن طريق المجاز والتشبيه، غير منتزع من حديث مدون، ولا ناشئ عن حادث ماضٍ نحو: «قبل الرماية تملأ الكنائن» — «كنت كراعا فصرت ذراعا» وقسم مبنيٌّ على حديث أو حادث نحو: «في كل واد أثر من ثعلبة» — «على أهلها جنت براقش.»

ومن عيون الحكم والأمثال قولهم:

لا جباية إلَّا بحماية – لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق – إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون – إذا بالغت في النصيحة هجمت بك على الفضيحة – من لا يسكت على كلمة يسمع كلمات – من لا يصبر عن أكلة فاتته أكلات – حسُن في كل عين ماتود – فليتك لم تزني ولم تتصدقي – كمستبضع التمر إلى هَجر – دواء الشق أنْ يحاص – على الباغي تدور الدوائر – العجب كل العجب بين جمادى ورجب – سبق السيف العذل – ربما تمكن الباطل من جولة أو جولتين، ثم لا بُدَّ للحق أنْ يصرعه ويدمغه في جبهته – مُكره أخوك لا بطل – اصنع ما يجب ولا تنظر إلى ما يحدث – الحقيقة أنْ تعلم لا أنْ تقال – كآكل رطب مُشان بعلة الورشان — أي: كالصياد الذي يأكل البلح داخلًا بين غراسه، ويحتج أنه يبحث عن الطائر الصغير المُسَمَّى مشانًا لكي يصطاده، ومشان اسم بلدة — الأُمور مرهونةٌ بأوقاتها.

(أ)

النفس لا ترجع عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

إذا لم يعن قول النصيح قبولُ فإن معاريض الكلام فضول

إن اختفى ما في الزمان الآتي فقس على الماضي من الأوقات

إنَّ الحياة كما يهوى مكيفها عسر لمن كدها يسر لمن لانا[١]

إنَّ الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن[٢]

إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة وإنْ كنت تدري فالمصيبة أعظم

إنَّ الأمير هو الذي يبقى أميرًا بعد عزلِهْ
إن زال سلطان الولا ية لم يزل سلطان فضلِهْ

الليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبه

---

[١] المؤلف.

[٢] أبو تمام.

ألا إن من لم يكن زارعًا دعوه فما هو ممن حصد[٣]

إذا ما طلبت الأمر من غير بابه ضللت وإنْ تقصد إلى الباب تهتدِ
إذا أنت لم تعلم طبيبك كل ما يسوءك أبعدت الدواء عن السقمِ

إذا أسرجت بالديباج بغلًا فما أبقيت للفرس الجواد[٤]

إذا ما أهان امرؤ نفسه فلا أكرم الله من يكرمه

إذا تم شيء بدا نقصه توقع زوالًا إذا قيل تم

إذا أعجبتك خصال امرئ فكُنْهُ يكن منك ما يعجبك
فليس على الفضل والمكرمات إذا جئتها حاجب يحجبك
الموت أَرْوَحُ لي مما أُراقبه أنا الغريق فما خوفي من البلل

المتنبي

أوردها سعد وسعد مختبل ما هكذا يا سعد تورد الإبل

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ نصيب ولاحظ تمنى زوالها
وما ذاك من لؤم به غير أنه يرجِّي سواها فهو يهوى انتقالها

---

[٣] المؤلف.

[٤] المؤلف.

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أنْ يكون لها ضرام
إذا لم تطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام
فإن النار بالعودين تذكى وإنَّ الحرب أولها كلام

إذا ما الدهر شَدَّ على أناس بكلكله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بِنَا: أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

إذا النفس لم تعطف على المرء ودها فما عزه إلا خيالٌ يخالبه[٥]

أفد طبعك المكدود بالهم راحة ولا بأس أنْ تعطيه شيئًا من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما تعطي الطعام من الملح

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى كل ما فيه عليك مقال

ألا كل حي هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق[٦]
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفتْ له عن عدو في ثياب صديق
إنَّ الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أي مفسده[٧]

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميلُ[٨]

---

[٥] المؤلف.

[٦] أبو نواس.

[٧] الفراغ هو البطالة والجدة هي الغنى.

[٨] السموأل بن عادياء.

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيلُ

ألا إخواني الذين عهدتهم أفاعي رمال لا تقصر عن لسعي
ظننت بهم خيرًا فلما بلوتهم نزلت بوادٍ منهمُ غير ذي زرعِ[9]

إذا وقع الذباب على طعام رفعت يدي ونفسي تشتهيهِ
وتجتنب الأسودُ وُرودَ ماء إذا كان الكلاب ولغن فيه

إنْ ساء بعضكم بعضًا فمرجعكم إلى التراضي وتَبَّتْ سورة الغضب[10]
وكل جدول ماء يعتريه قذى فانف القذى عنه واشرب صفوه تصب

إذا أنضج الدهر النفوس تجاربا رأت نعم الدنيا تحاكي النوائبا[11]
وليس دواء الدهر إلَّا احتقاره فلا تَكُ فيه غاضبًا أو معاتبًا

إذا ما الجرح رَمَّ على فساد تبين فيه تفريطُ الطبيب[12]

إذا سلمت روس الرجال من الأذى فما المال إلَّا مثل قص الأظافر

---

[9] بلوتهم؛ أي: اختبرتهم.
[10] المؤلف.
[11] المؤلف.
[12] تفريط؛ أي: تقصير.

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته   على طرف الهجران إنْ كان يعقلُ

إنَّ الزرازير لَمَّا قام قائمُها   توهمتْ أنها صارتْ شواهينا[13]
ظنت تأني البزاة الشهب عن جزع   وما درت أنه قد كان تهوينا
أي خير وصلاح في فتًى   كلما غنت فتاةٌ رقصا[14]

أُعلِّل النفس بالآمال أرقبها   ما أضيق العيش لولا فسحة لأمل[15]

أميل مع الحقوق على ابن عمي   وآخذ للصديق من الشقيق

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله   فيخصب عندي والمكان جديب
وما الخصب للأضياف أنْ تُكثر القرى   ولكنما وجه الكريمِ خصيبُ

(ب)

بنو الدهر جاءتهمْ أحاديثُ جمة   فما صدقوا إلَّا حديث ابن دينار
بذا قضت الأيام ما بين أهلها   مصائبُ قوم عند قوم فوائد[16]

[13] صفي الدين الحلي.
[14] إبراهيم الحوراني.
[15] الطغرائي.
[16] المتنبي.

بذاك نرى الوحيَ السماويَّ عمننا تخالف غمدانا وما اختلف النصل[١٧]
سبيلان من عيسى وأحمد مَهَّدا بحقٍّ وعند الله تجتمع السبل

بني إنَّ البر شيء هَيِّنٌ وجه طليق وكلام لين

(ت)

تكلم وسددْ ما استطعت فإنما كلامك حَيٌّ والسكوتُ جمادُ
فإن لم تجد قولًا سديدًا تقوله فصمتك عن غير السداد سدادُ

(ث)

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا التحفتَ به فإنك عارِ

ثلاثة يجهل مقدارها الأمن والصحة والقوت[١٨]

(ح)

حب التناهي غلط خير الأمور الوسط

---

[١٧] المؤلف.

[١٨] مقدارها؛ أي: قدرها، وهو قيمتها.

(خ)

خذ ما رأيت ودع شيئًا سمعت به   في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

(ر)

ربما تجزع النفوس من الأمر   لـه فـرجـة كـحـل الـعـقـال

(س)

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا   ويأتيك بالأخبار من لم تزود[19]
ستُقطع في الدنيا إذا ما قطعتَني   يمينك فانظر أي كف تبدل

(ص)

صديق عدوي داخلٌ في عداوتي   وإنـي لِـمَـنْ وَدَّ الـصـديـق ودودُ

صـلـى وصـام لأمـر كـان يـطـلـبـه   لما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

[19] طرفة بن العبد.

(ض)

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرجُ

(ع)

على المرء أنْ يسعى إلى الخير جهده وليس عليه أنْ تتم المقاصد

علي نحت القوافي من معادنها وما علي إذا لم تفهم البقر[٢٠]

(غ)

غير مُجْدٍ في مِلَّتِي واعتقادي نوح باك ولا تَرَنُّم شاد[٢١]

(ف)

فالناس للناس والدنيا مكافأة والخير يُصنع والأخبار تنتقل[٢٢]

---

[٢٠] المتنبي.

[٢١] أبو العلاء المعري، غير مجد؛ أي: غير نافع.

[٢٢] بهاء الدين زهير.

فيا دارها بالخيف إنَّ مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال[٢٣]

فما حسن أنْ يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

فحَتَّام تُنهَى ولا تنتهي وتسمع وعظًا ولا تسمع
فيا حجر الشحذ حتى متى تسن الحديد ولا تقطع

فإما أنْ تكون أخي بصدق فأعرف منك غَثِّي مِن سميني
وإلَّا فانتبذني واتخذني عدوًّا أتقيه ويتقيني

فأنت أخي ما لم تكن لي حاجة فإن عَرَضَتْ أيقنت أنْ لا أخًا ليا
كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

فيا مُوقِدًا نارًا لغيرك ضَوْءُها ويا حاطبًا في جبل غيرك تحطب

(ق)

قد قيل ما قيل إنْ صدقًا وإن كذبا فما احتيالك في شيء وقد قيلا

قالوا كبرت عن الصبى وقطعت تلك الناحيهْ[٢٤]

---

[٢٣] أبو العلاء المعري.

[٢٤] بهاء الدين زهير.

صدقوا كبرت وإنما تلك الشمائل باقيهْ

قالوا الكهولة هَدَّتْ كل ما كانا قلت الكهولة لا تمحو سجايانا[٢٥]
جسم يشيخ ونفس مثل ما عهدت في فجر أيامها حسًّا ووجدانا

قالت الضفدع قولًا فَسَّرَتْه العلماء
في فمي ماء وهل ينطـ ـق من في فيه ماء

قَصِّر الآمال في الدنيا تَفُزْ فدليلُ العقل تقصير الأملْ[٢٦]

قد استشفيت من داء بداء وأَقْتَلُ ما أعلك ما شفاكا

المتنبي

(ك)

كذا الآدمي سعادته فيـ ـه ما ضل عنها سوى الأغبياء[٢٧]

كل من تلقاه يشكو دهرَه ليت شعري هذه الدنيا لمن
كل من في الوجود يطلب صيدا غير أنَّ الشباك مختلفات

---

[٢٥] المؤلف.
[٢٦] ابن الوردي.
[٢٧] المؤلف.

كل ما ترتجيه سهلٌ ولكن عثرات الآمال ليست بسهلة[٢٨]

كلما أطلع الزمان قناة رَكَّبَ المرء في القناة سنانا

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدًا لأول منزل

كأنك من كل الطباع مُرَكَّبٌ فأنت إلى كل القلوب حبيب

(ل)

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال[٢٩]

لا يبلغ الأعداءُ من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبق إلَّا صورة اللحم والدم[٣٠]

لا يعرف الشوق إلَّا من يكابده ولا الصبابة إلَّا من يعانيها

---

[٢٨] ناصف اليازجي.

[٢٩] المتنبي.

[٣٠] زهير بن أبي سلمى.

لك نصحي وما عليك جدالي		آفةُ النصح أنْ يكون جدالًا[31]

لو فكر العاشقُ في منتهى		حسن الذي يصيبه لم يصبه[32]

لكل حال مدة وتنقضي		ما غلب الأيامَ إلَّا من رضي

ليس الشفيع الذي يأتيك مُؤْتزرًا		مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا[33]

لقد أسمعتَ لو ناديت حيًّا		ولكن لا حياة لمن تنادي
ونار إنْ نفخت بها أضاءت		ولكن أنت تنفخ في رماد

لقد صار قلبي قابلًا كل صورة		بآيات قرآن وإنجيل نصراني[34]
أدين بدين الحب أنَّى توجهتْ		ركائبه فالحب ديني وإيماني

لا تلطفن بذي لؤم فتطغيه		واغلظ عليه يجي طوعًا وإذعانًا
إنَّ الحديد تذيب النارُ قسوتَه		ولو صببت عليه البحر ما لانا

ليس من مات فاستراح بميت		إنما المَيْتُ مَيِّتُ الأحياء

---

[31] أحمد شوقي.

[32] المتنبي.

[33] الفرزدق.

[34] محيي الدين بن العربي.

ليس الغريب الذي تنأى الديار به   إنَّ الغريب قريبٌ غير مودود

لعل عتبك محمود عواقبه   وربما صَحَّت الأجساد بالعلل[٣٥]

لا تنه عن خلقٍ وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم[٣٦]

لا تقطعنْ ذَنَبَ الأفعى وترسلها   إنْ كنت شهمًا فأتبعْ رأسها الذنبا

لا أذود الطير عن شجر   قد بلوت المر من ثمره

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم   وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

لو كل كلب عوى ألقمته حجرًا   لأصبح الصخر مثقالًا بدينار

لا يخدعنك من عدو دمعه   وارحم شبابك من عدو ترحم[٣٧]
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يُراق على جوانبه الدم

لأمر عليهم أنْ تتم صدورُهُ   وليس عليهم أنْ تتم عواقبُهْ

أبو تمام

---

[٣٥] المتنبي.
[٣٦] أبو الأسود الدؤلي.
[٣٧] المتنبي.

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم   ولا سراة إذا جهالهم سادوا

لا ألفينك بعد الموت تندبني   وفي حياتي ما زودتني زادي

لطف الله بنا   أَنَّ الخطايا لا تفوح
إذن المستور منا   بين جنبيه فضوح

أبو العتاهية

(م)

ما طار طير وارتفعْ   إلَّا كما طار وقعْ

مقالة السوء إلى أهلها   أسرع من منحدر سائل[38]
ومن دعا الناس إلى ربه   ذموه بالحق وبالباطل

ما العيش إلَّا أنْ تحب   وأنْ يحبك من تحبه

من كان يخلق ما يقو   ل فحيلتي فيه قليله

متى تك في صديق أو عدو   تخبِّرك الوجوه عن القلوب

---

[38] إلى أهلها؛ أي: إلى مستحقيها.

ما الناس إلَّا عاملان فعامل قد مات من عطش وآخرُ يغرق[39]

من راقب الناس مات غمًّا وفاز باللذة الجسور

متى تر الكلب في أيام دولته فاجعل لرجليك أطواقًا من الزرد

ناصيف اليازجي

ما أنت إلَّا كلحم ميت دعا إلى أكله اضطرارُ

من لم يعدنا إذا مرضنا إنْ مات لم نشهد الجنازه[40]

ما كلف الله نفسًا فوق طاقتها ولا تجود يدٌ إلَّا بما تجد

من قال لا أغلط في أمر جرى فإنها أول غلطة ترى

ناصيف اليازجي

ما حوى العلمَ جميعًا أحد لا ولو مارسه ألف سنهْ
إنما العلم كبحر زاخر فخذوا من كل شيء أحسنهْ

---

[39] صالح بن عبد القدوس.

[40] الصاحب بن عباد.

من عف خف على الصديق لقاؤه   وأخو الحوائج وجهه مسئوم[٤١]

(ن)

نعيب زماننا والعيب فينا   وما لزماننا عيب سوانا

نبئت عمرًا غير شاكر نعمتي   والكفر مخبثة لنفس المنعم[٤٢]

نرى الفتى ينكر فضل الفتى   في عيشه حتى إذا ما ذهبْ
جد به الحرص على نكتة   يكتبها عنه بماء الذهبْ

نقاء الهوا ونقاء الزرو   ع يعدي النفوس فتجني النقاء[٤٣]

(و)

وعين الرضى عن كل عيب كليلة   كما أنَّ عين البغض تبدي المساويا

ولما صار ود الناس خبا   جزيت على ابتسام بابتسام[٤٤]

---

[٤١] أبو الأسود الدؤلي.

[٤٢] عنترة العبسي، الكفر يراد به هنا كفر النعمة — أي: إنكار المعروف.

[٤٣] المؤلف.

[٤٤] المتنبي خبا — أي: مكرًا.

ولا بُدَّ من شكوى إلى ذي مروءة　　يؤاسيك أو يسليك أو يتوجع

وإنَّ الحق مقطعه ثلاث　　يمين أو شهود أو جلاء[٤٥]

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه　　يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم[٤٦]
ومهما يكن عند امرئ من خليقة　　وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

وإذا غلا شيء علي تركته　　فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وإنما رجل الدنيا وواحدها　　من لا يعول في الدنيا على رجل

الطغرائي

ولم أرَ في عيوب الناس عيبًا　　كنقص القادرين على التمام

المتنبي

وإذا طلبت إلى كريم حاجة　　فلقاؤه يكفيك والتسليم[٤٧]
وإذا طلبتَ إلى لئيم حاجة　　فَأَلِحَّ في رفق وأنت مقيم

---

[٤٥] زهير ابن أبي سلمى. جلاء أي: دليل أو برهان.

[٤٦] زهير ابن أبي سلمى.

[٤٧] أبو الأسود الدؤلي.

ومن لم يُذِلَّ النفس في طلب العلى   قليلًا يعش عمرًا طويلًا أخا ذل

وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعة   من جاهه فكأنها من ماله

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره   تعددت الأسباب والموت واحد

وما قَلَّ مَنْ كانت قلوبٌ وراءه   ولا ذل عبدُ الحق أين يسير[٤٨]

وهل ينفع المدفونَ تعميرُ قبره   إذا كان فيه جسمه يتهدم

وإذا صفا لك من زمانك واحدٌ   فهو المرادُ فَعِشْ بذاك الواحد
وإذا تآلفت القلوبُ على الهوى   فالناسُ تضرب في حديد بارد

وقد يَتَزَيَّا بالهوى غير أهله   ويستصحب الإنسان من لا يشاكله

ولرحمة المتوجعين مرارةٌ   في القلب مثل شماتة الأعداء

ولَربما كذب امرؤ بكلامه   وسكوته وبكائه وبضحكه

وإذا نزلت بدار قوم دَارِهِمْ   فلهم عليك تعزُّزُ الأوطان

---

[٤٨] المؤلف.

وكل مصيبات الزمان وجدتها — سوى فرقة الأحباب هَيِّنَةَ الخطب

ومن يتتبع جاهدًا كل عثرة — يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب
ومن لا يغمض عينه عن صديقه — وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

ومن البلية عذل من لا يرعوي — عن جهله وخطاب من لا يفهم[٤٩]
ومن العداوة ما ينالك نفعه — ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

وليس يصح في الأذهان شيءٌ — إذا احتاج النهار إلى دليل[٥٠]

وأذنك صُنْ عن سماع القبيح — كصون اللسان عن النطق بِهْ
فإنك عند سماع القبيح — شريكٌ لقائله فانتبهْ

وفي اليمين على ما أنت فاعله — ما دل أنك في الميعاد متهم

المتنبي

ومن نكد الدنيا على الحر أنْ يرى — عدوا له ما من صداقته بُدُّ

المتنبي

[٤٩] المتنبي.
[٥٠] المتنبي.

وطول مقام المرء في الحي مخلق   لديباجتيه فاغتربْ تتجدد[٥١]
فإني رأيت الشمس زيدت محبته   إلى الناس أنْ ليست عليهم بسرمد

وما طلب المعيشة بالتمني   ولكن ألق دلوك في الدلاء
تجيء بملئها طورًا وطورًا   تجيء بحمأة وقليل ماء[٥٢]

وما مبحث الأديان إلَّا مفاوز   يتيه لديها جاهل وخبير[٥٣]
وما لبها إلَّا المكارم والتقى   ولا يستوي لب لها وقشور

وحبب أوطانَ الرجال إليهِمُ   مآرب قَضَّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهُمُ   عهود الصبى فيها فحَنُّوا لذلكا

وكم مذنب لما أتى باعتذاره   جنى عذره ذنبًا من الذنب أعظما

وللنفس أخلاق تدل على الفتى   أكان سخاء ما أتى أم تساخيا[٥٤]

وذو الشوق القديم وإنْ تَسَلَّى   مشوق حيث يلقى العاشقينا[٥٥]

---

[٥١] أبو تمام. مقام بضم الميم أي: إقامة، مخلق أي: مُبْلٍ، بسرمد أي: بدائمة.
[٥٢] حمأة، أي: وحل.
[٥٣] المؤلف.
[٥٤] المتنبي.
[٥٥] عمر بن أبي ربيعة.

ولا أصطفي من كان فضلي عدوه وإنْ جاد لي مِنْ بعدُ بالود أجمعا[٥٦]

وزَهَّدَني في الناس معرفتي بهم وطولُ اختباري صاحبًا بعد صاحبِ
فلم ترني الأيام خلا تروقني مباديه إلَّا ساءني في العواقبِ

وإنَّ الجرح ينغر بعد حين إذا كان البناء على فساد

والنار في أحجارها مخبوءة لا تصطلي ما لم تثرها الأزند[٥٧]

ولو كان همٌّ واحد لاحتملته ولكنه همٌّ وثانٍ وثالثُ

وفي الناس من الناس مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

وصاحب الحب لا تخفى دلائله كحامل المسك لا يخلو من العبق

وما الحب من حسن ولا ومن ملاحة ولكنه شيء به النفس تعلق

ومن يجعل الضرغام في الصيد بازه تَصَيَّدَهُ الضرغام فيما تصيدا

المتنبي

[٥٦] إبراهيم اليازجي.
[٥٧] علي بن الجهم.

(ي)

يـا أيـهـا الـرجـل الـمـعـلـم غـيـره	هـلا لـنـفـسـك كـان ذا الـتـعـلـيـم[٥٨]
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى	كـيـمـا يـصـح بـه وأنـت سـقـيـم
فـابـدأ بـنـفـسـك فـانـهـهـا عـن غـيـهـا	فـإذا انـتـهـت عـنـه فـأنـت حـكـيـم

يشتهي الإنسان في الصيف الشتا	فـإذا جـاء الـشـتـاء أنـكـرهْ[٥٩]
ليس يرضـي المرءَ حالٌ واحدٌ	قُـتـل الإنـسـان مـا أكـفـرهْ

يـشـمـر لـلـج عـن سـاقـه	ويغمره الموج في الساحل

يبكي علينا وما نبكي على أحد	لَنحن أغلظُ أكبادًا من الإبل

يا شد ما بعدت عليك ديارنا	وطلابنا فابرق بأرضك وارعد

يهون علينا أنْ تُصاب جسومنا	وتسلم أعراضٌ لنا وعقول[٦٠]

يقضى على المرء في أيام محنته	حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن[٦١]

---

[٥٨] أبو الأسود الدؤلي.
[٥٩] امرؤ القيس الكندي، أنكره، أي: استقبحه.
[٦٠] المتنبي.
[٦١] المتنبي.

يَزِينُ الحب ما لا حسن فيه كذاك الحسن حب وارتضاء
ولو حسنت بعين الكل ليلى لجُنَّ الكل واشتمل البلاء[٦٢]

ومن هذا الباب قلت في جملة قصيدة ناصحًا سواد الشعب عندنا بتجنب المسائل السياسية:

وَلِيَ السياسةَ أهلُها فهُمُ السـ ـوَّاق إيـرادًا وإصـدارًا
وعليهِمُ تُلقى تباعتُها مشحونة نكدًا وأوزارًا
أنى نشاطرهم مخاطرها ونفصِّلُ الفلاحَ نجَّارا
فتفوتنا لذات سلطتهم ويصيبنا تخريبها الدارا

وأمَّا مظاهر الحماسة والنخوة والأريحية، فمن أمثلتها ما رواه أبو تمام في ديوان الحماسة لجعفر بن علبة الحارثي، وكان مسجونًا مهددًا بحكم الموت، فرأى في المنام كأن زوجته زارتْه هناك، فلما أفاق أنشد أبياتًا منها قوله:

عجبتُ لمسراها وأَنَّى تخلصتْ إليَّ وبابُ السجن دوني مغلقُ
أَلَمَّتْ فحَيَّتْ ثم قامت فودعت فلما تولت كادت النفس تزهقُ
فلا تحسبي أني تخشعت بعدكم لشيء ولا أني من الموت أفرقُ
ولكن عَرَتْنِي من هواكِ صبابةٌ كما كنت ألقى منك إذ أنا مطلقُ

وما رواه أبو تمام لقطري بن الفجاءة أحد أبطال الخوارج وزعمائهم يخاطب نفسه ويعاتبها، ويحثها على البسالة والإقدام:

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لا تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لم تُطاعي
فصبرًا في مجال الموت صبرا فما نِيلُ الخلود بمستطاعِ

---

[٦٢] ناصيف اليازجي.

وأحسن من ذلك قول القائل:

إني لمن معشر أفنى أوائلهم   قولُ الكماة ألا أين المحامونا
لو كان في الألف منا واحد ودعوا   من فارس خالهم إياه يعنونا

وقول السموأل بن عادياء:

فنحن كَمَاء المزن ما في نصابنا   كهام ولا فينا يعد بخيلُ
وننكر إنْ شئنا على الناس قولهم   ولا ينكرون القول حين نقولُ
وما خمدت نارٌ لنا دوق طارق   ولا ذمنا في النازلين نزيلُ
وأسيافنا في كل شرق ومغرب   بها من قراع الدارعين فلولُ
معودة إن لا تُسَلَّ نصالها   فتغمد حتى يستباح قتيلُ
لنا جبل يحتله من نجيره   منيع يرد الطرف وهو كليلُ
رسا أصله تحت الثرى وسما به   إلى النجم فرع لا يُنال طويلُ
سلي إنْ جهلت الناس عنا وعنهمُ   فليس سواء عالم وجهولُ

وقول الأمير أبي فراس الحمداني:

ونحن أناس لاتوسط عندنا   لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسُنا   ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر

وقول الإمام الشافعي:

عليَّ ثيابٌ لو تُباع جميعُها   بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفسٌ لو تُقاس بفضلها   نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

وقول الطغرائي وكان وزيرًا خطيرًا، ثم عُزل وأصابتْه أيام شدة ومحنة:

تقدمتني أناس كان شوطهمُ   وراء خطويَ إذْ أمشي على مهل
وإنْ علاني من دوني فلا عجب   لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل

وربما ظهر أثر الحمية وعزة النفس في المواضع التي يُظن أنها بعيدة عنها، كما قال رجل يُشير إلى فاقته، وإلى إسعاف أحد إخوانه له في مكافحة الفاقة حتى أزالها:

رأى خُلَّتِي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

ففي قوله: «من حيث يخفى مكانها» استدراكٌ جميل يسميه البديعيون تتميمًا أو احتراسًا، فالذي يريده بخفاء مكان خُلَّتِهِ — أي: مكان فقره — أنه لم يكن يشكو حاجته إلى أحد، ولا يظهر عليه الفقر ببادرة لسان، ولا مظهر من مظاهره.

وهذا منتهى المروءة والإباء، ولا يقل عن ذلك إظهارُ الإباء في مواقف الصبابة والغرام، كما قال كثير عزة يشعر حبيبته أنها إذا اشتطت في الجور عليه تَحَمَّلَ مصيبة الهجر والقطيعة واستغنى عنها:

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنت يومًا لها النفس ذلت

وكما قال أديب حلب المشهور فرنسيس مراش في أحد مطالعه:

أأذوبُ لا والله لستُ أذوبُ إنْ قلتِ هجرًا قلتُ ذا المطلوب

ومن أمثلة الحمية والاعتداد بالنفس قول المتنبي:

إذا شد زندي حسن رأيك فيهم ضربت بسيف يغلق الهام مغمدا
وما أنا إلا سمهري حملته فزين معروضًا وراع مسددا
وما الشعر إلَّا من رواة قصائدي إذا قلت شعرًا أصبح الدهر منشدا
أجزني إذا أنشدت شعرًا فإنما بشعري أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

ويدخل في هذا السلك قول أبي الحسن التهامي، إذا لم تَخُنِّي الذاكرة:

ما شاب عزمي ولا حزمي ولا أدبي ولا وفائي ولا ديني ولا كرمي
وإنما اعتاض رأسي غير صبغته والشيب في الشعر غير الشيب في الهمم

وقول الطغرائي:

تَقَدَّمَتْنِي أناسٌ كان شوطهمُ ... وراء خطويَ إذْ أمشي على مهل
هذا جزاء امرئ أقرانه درجوا ... من قبله فتمنى فسحة الأجل
وإن علاني مَنْ دوني فلا عجب ... لي أُسوة بانحطاط الشمس عن زحل

وقول ابن سناء الملك:

وإنك عبدي يا زمان وإنني ... على الرغم مني أن أرى لك سيدا
ولو كان إدراك الهُدَى بتذلُّل ... رأيت الهدى أن لا أميل إلى الهدى
ولو مَدَّ نحوي حادثُ الدهر كَفَّهُ ... لحدثتُ نفسي أنْ أَمُدَّ له يدا

وقول الآخر:

تنكر لي دهري ولم يدر أنني ... أعز وإن النائبات تهون
فبات يريني الخطب كيف اعتداؤه ... وبِتُّ أريه الصبر كيف يكون

وقول غيره:

وتَجَلُّدِي للشامتين أُريهُمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدهر لا أتضعضع
والنفس راغبةٌ إذا رَغَّبْتَها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

زعم الأصمعي أنَّ البيت الثاني من هذين البيتين هو خير ما نطقت به العرب في الحكم، ومن قبيل ما نحن فيه قول القائل:

إني لأرحم حاسديَّ لفرط ما ... ضمنت ضمائرهم من الأكدار
نظروا صنيع الله بي فعيونهم ... في جنة وقلوبهم في نار

وأمَّا المراثي فهي من أحسن ما أجادتْه القرائحُ العربية، وهذه الإجادة الممتازة الدالة على الوفاء وشرف المبدأ عهدت في أدبنا منذ أقدم عصوره حتى سئل أعرابي: ما بال مراثيكم خير أقوالكم؟ فأجاب: لأننا لا ننطق بها إلَّا وقلوبنا محترقة. ومن عيون المراثي مرثية أبي تمام في محمد الطوسي التي يقول في مطلعها:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر

إلى أنْ يقول:

فتًى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إنْ فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلًا فرده إليه الحفاظ الصعب والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها: من تحت أخمصك الحشر
فتًى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبرًا أنْ يقال به كبر
فتًى سلبتْه الخيل وهو حمى لها وبزته نار الحرب وهو لها جمر
لئن أبغض الدهر الخئون لفقده لعهدي به ممن يحب له الدهر
لئن ألبست فيه المصيبة طيئٌ فما عَرِيَتْ منها تميم ولا بكر
سقى الغيث غيثًا وارت الأرض هدبه وإنْ لم يكن فيه سحاب ولا قطر
وكيف احتمالي للغيوث صنيعة بإسقائها قبرًا وفي لحده البحر
مضى طاهرَ الأثواب لم تَبْقَ روضةٌ غداة ثوى إلَّا اشتهتْ أنها قبر

والمرثية المشهورة لأبي الحسن الأنباري في الوزير المصلوب محمد بن بقية المعروف بنصير الدولة، ويروى أنَّ الذي صلبه وهو عز الدولة بن بختيار من سلاطين آل بويه لما سمعها فتنته فقال: وددت لو كنت أنا المصلوب، وهذه القصيدة فيَّ. أتلوا على مسامعكم منها الأبيات التالية:

علو في الحياة وفي الممات لَحَقٌّ تلك إحدى المعجزات

كأن الناس حولك حين قاموا وفود نداك أيام الصلات
مددت يديك نَحْوَهُمُ احتفاءً كمدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أنْ يضم عُلاك من بعد الوفاة
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات
ولم أرَ مثل جذعك قط جذعًا تمكن من عناق المكرمات
أسأت إلى النوائب فاستثارت فأنت قتيل ثأر النائبات

ويحسب من هذه الطبقة قصيدة القاضي ابن عياض في الأمير بن نصر، ومنها قوله:

كأن ابن نصر سائرًا في سريره حيي من الوسمي أقشع هاطلهْ
يمر على الوادي فتُثني رمالُهُ عليه وبالنادي فتبكي أراملهْ
أناعيه أنَّ النفوس منوطةٌ بقولك فانظر ما الذي أنت قائلهْ
بفيك الثرى لم تدر من حل في الثرى جهلت وقد يستصغر الأمر جاهلهْ
هو السيد المهتز للتم بدره وللجود عطفاه وللطعن عامله
أفاض عيون الناس حتى كأنما عيونهمُ مما تفيض أنامله

وقلت أنا في مطلع قصيدة نظمتها سنة ١٩٠٣، وكنت في القاهرة أرثي غريق النيل جبران بن كحيل، أحد متقدمي الجالية السورية هناك:

إذا كنت يا قلب لا تصبر فما أنت تعذل بل تعذر
أحتى شهاب الذكا ينطفي وحتى المياه غدت تغدر
بربك يا نيلُ ما ذنبنا إليك وهل هو لا يغفر
وهل خفت نقصًا فطالبتنا بسيل مدامع ينحدر
عهدناك تروي القلوب فمال الـ ـقلوب بك اليوم تستعر
كفرت بحق جوار فتًى ذكـ ـره طي كل حشى يقبر
وقد كنت تعبد فيما مضى فيا لإله غدا يُكفر
أفي الماء لينٌ وهذي قساو ته قد يلين لها الحجر

وأمَّا الجرأة والصراحة فمن أمثلتها المشهورة في التاريخ جواب ذلك الأعرابي للخليفة الثاني عمر بن الخطاب، لما قال عمر وهو على المنبر: «من رأى منكم فيَّ اعوجاجًا فليقومه.» فأجابه الأعرابي: «لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بقوائم سيوفنا.»

وقول شريك بن الأعور — وقيل غيره — لمعاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية، وقد أراد معاوية إهانته عن طريق الممازحة، فأجابه ذلك وهو من رعاياه: «يا ابن هند متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أُمهاتهم أحرارًا، والله يا ابن هند إنَّ القلوب التي أبغضناكم بها لم تزل في صدورنا، وإنَّ السيوف التي حاربناكم بها لم تزل على جنباتنا، وإنكم لا تدنون من الحرب شبرًا حتى نتقدم منها ذراعًا.»

واتفق للحجاج أمير العراق الطاغية السفاك أنه رأى أعرابيًّا شيخًا مقبلًا من صدر البادية فقال له: «يا أعرابي يجب أنْ تشكروا الله لولايتي عليكم.» فأجابه: «إننا نشكر الله على نعم كثيرة، وأمَّا على ولايتكم ففي أي وجهه تريد؟» قال: «لأني منذ وليت عليكم لم يصبكم الطاعون.» قال الشيخ: «إنَّ الله أكرم وأرحم من أنْ يجمع علينا بين ولايتكم والطاعون.» فضحك الحجاج وخلى سبيله.

ومن هذا القبيل ما روي عن قيس بن الملوح العامري — المعروف بمجنون ليلى — قالوا: إنَّ أحد الخلفاء الأمويين — والمرجح أنه عبد الملك بن مروان إذا صَحَّتْ رواية الحادث — دعاه إلى مجلسه، وقال له: «ويحك يا قيس بأيِّ عين نظرت إلى ليلى فهمتَ بها هذا الهيام، وهي ليست أجمل النساء؟» فأجابه العامريُّ فورًا: «بالعين التي نظر الناس بها إليك فجعلوك مَلِكهم وخليفتهم، وأنت لست أفضل الرجال.»

ويحكى أنَّ الخليفة عبد الملك بن مروان قال يومًا لشاعره الخصوصي الأخطل التغلبي النصراني، وكان من مدمني الخمرة: «صف لي الخمرة يا غياث وأوجز.» فأجابه: «يا أمير المؤمنين الخمرة أولها جنون، وآخرها صداع.» فقال الخليفة: «فما الذي يحببها إليك وهي على هذه الصفة؟» قال: «ولكن بينهما يا أمير المؤمنين ساعة لا أبيعها بملكك.» وقيل: بل قال: «ولكن بينهما يا أمير المؤمنين ساعة لا أرى ملكك في جنبها إلَّا كلعقة من نهر الفرات.» ثم أنشد:

إذا ما نديمي صب لي ثم صب لي — ثلاث زجاجات لهن هديرُ
خرجت أجر الذيل تِيهًا كأنني — عليك أميرَ المؤمنين أميرُ

فضحك الخليفة، وقال له: «اغرب عن وجهي، والله لست من المهتدين.»

وقال له الخليفة المشار إليه في يوم آخر: «يا غياث إذا دخلت في الإسلام جعلنا لك عطاء في أعطية المسلمين.» فأجابه: «إني طوع يدي أمير المؤمنين في كل شيء ما عدا أمرين.» قال: ما هما؟ قال: العرض والدين، فابتسم الخليفة وأجابه: «لا بأس عليك، وإنما أردت ممازحتك.»

ومن أمثلة الجرأة والصراحة في الشعر قول النابغة الذبياني في اعتذاره إلى النعمان أبي قابوس، ورد ما اتهم به لديه من أنه جحد فضل النعمان، وأصبح يخامر عليه في الشام وهو عند الملوك الغساسنة، فقال له النابغة ما معناه: إنَّ الخيانة والمخامرة ليستا من شأنه، وإنما هو يمدح الغسانيين؛ لأنهم أحبوه وأكرموه، كما أنَّ النعمان يكرم الشعراء الذين حواليه، وهذا الذي قاله:

ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتيتهم	أُحَكَّمُ في أموالهم وأُقَرَّبُ
كفعلك في قوم أراك اصطفيتهم	فلم ترهم في مدحهم لك أذنبوا

وأغرب من ذلك في الجرأة والصراحة ما قاله في شعره أبو عبادة البحتري راثيًا الخليفة المتوكل على الله، وكان ولي عهده المنتصر قد أوعز إلى الجنود الأتراك في القصر باغتياله لنفور شديد طال أمده بين الأب وابنه، وقد نال الابن منه قوارص عديدة أليمة، حتى عِيلَ صبره. قال البحتري:

صريع تقاضاه السيوف حشاشة	يجود بها والموت حُمْرٌ أظافرهْ
حرام عليَّ الراح بعدك أو أرى	دمًا بدمٍ يجري على الأرض ماطره
وهل يُرتجى أنْ يطلب الثأرَ طالبٌ	مدى الدهر والموتور بالدم واترهْ
فَلَا مُلِّيَ الباقي تراث الذي مضى	ولا حملت ذاك الدعاء منابرهْ

ومن الجرأة والصراحة أنَّ الشريف الرضي الذي توفي في حدود سنة ٤٠٠ للهجرة — أي: بعد وفاة المتنبي بنحو خمسين سنة — أنشد خليفةَ زمانه العباسي القادر بالله قصيدة جاء فيها قوله:

عطفًا أمير المؤمنين فإننا	في دوحة العلياء لا نتفرق
إلَّا الخلافة ميزتك فإنني	أنا عاطل منها وأنت مطوق

قيل: فتبسم الخليفة، وقال للشاعر: «برغم أنف الشريف.» ثم مضت أيامٌ وكان الشريف في مجلس الخليفة، وقد قبض لحيته بيمناه، وأخذ يرفعها نحو وجهه حتى تمس أنفه، ثم يحدرها، ثم يعيد رفعها — فِعْلَ المُتلهِّي — فقال الخليفة مازحًا: «لعلك تشم منها رائحة الخلافة.» فأجابه: «بل أشم ما هو أعظم من الخلافة وأكرم؛ لأنه أصلها ومصدرها، أشم رائحة النبوة.» يريد أنه من سُلالة حضرة النبي العربي، وليس الخليفة وأسرته كذلك، فسكت الخليفة عن الجواب، وتحول الحديث إلى مجرًى آخر.

والشاعر المجيد مهيار الديلمي تلميذ الشريف الرضي المتأدب بأدبه، ظهرت منه مثل هذه الحمية على دينه العربي الإسلامي، ونسبه الديلمي الفارسي إذ كان فارسي النجار عربي النشأة والثقافة والدار. فقال مخاطبًا حبيبته منتقلًا من النسيب والتشبيب إلى هذا الغرض الجليل القدر:

لا تظني نسبًا يقعد بي	أنا من يرضيك عند النسب
قوميَ استولوا على الدهر فتًى	ومشوا فوق رءوس الحقب
قد ورثت المجد عن خير أب	وقبست الدين عن خير نبي

وقال الأبيوردي منددًا بوزرراء زمانه تنديدًا مؤلمًا غير حاسب لسطوتهم حسابًا:

وكيف أُرَجِّي دولة وزراؤها	يردون إن حييتهم بالحواجب
مصيبون في تخييبهم كل مادح	فعين صواب الرأي تخجيل كاذب

وأمَّا الإشارات اللطيفة والكنايات في القول فهي أعظمُ الدلائل وأوضحها على فطنة العرب وحدة أذهانهم، ولهم في هذه الناحية شيءٌ كثير، ومعظمه يسمى ملاحن، أو لحن القول، أو الكلام الموجه — أي: ما كان له وجهان، وجه قريب غير مقصود، ووجه بعيد هو الذي قصده صاحبه.

ومن أمثلة هذا الباب أنَّ رجلًا شرب خمرًا، فسكر، فسقط، فشُجَّ رأسه، فشد عليه عصابةً، وفي صبيحة اليوم التالي زار صديقًا له من أهل الأدب وعنده جماعة، فسأله صاحب البيت: ما بال رأسك معصوبًا؟ فكره أنْ يكذب، وخاف أنْ يصدق، فيفضح نفسه أمام أُناس غرباء عنه، فأجاب صديقه: ركبت أمس مهري الأشقر فكَبَا بي وأصابتني شجة. ففهم أولئك من العبارة ظاهرها، ولم يستغربوا الأمر، وأمَّا صديقه — وكان يعلم

أنه ليس للمعصوب مهر، ولا هو من متعوِّدي ركوب الخيل — فعلم مراده، وفطن إلى أنه قصد بالمهر الأشقر الخمرة الشقراء اللون. ومن هذا القبيل قول أحدهم:

وما يك فيَّ من عيب فإني جبانُ الكلب مهزول الفصيل

أورد في عجز البيت كنايتين عن محبته للضيوف، وكرمه في ضيافتهم؛ لأن جبن الكلب يكنى به عن أنسه بالزوار؛ لكثرة رؤيته إياهم، فلا ينبحهم، وهزال الفصيل كناية عن عدم شبعه من رضاعة أمه، إذ يحتلب كل ما في ضرعها تقريبًا لأجل قرى الضيوف. ومن هذا القبيل قول القائل في وصف حالة قوم:

بيض المطابخ لا تشكو إماؤهمُ طبخ القدور ولا غسل المناديل

كناية عن فقرهم؛ ولهذا تظل مطابخهم نظيفة لقلة استعمالها، ونساؤهم لا تتعب في طبخ القدور، ولا في غسل مناديل الآكلين — أي: فِوَطِهم — لعدم وجود شيء من ذلك.

وأمَّا المداعبةُ وخفة الروح فهما أيضًا من شِيَمِ النفس العربية مثل الإباء، والجرأة، والحميَّة، وشدة الانفعال فرحًا أو حزنًا، وسرعة الانتقال من رضًى إلى غضب، ومن غضب إلى رضًى. وهذه الشيم لها آثار ظاهرة في الأدب العربي، وقد تقدم معنا أمثلةٌ كافية عليها، وبقي أنْ نورد أمثلة على المداعبة وخفة الروح.

سئل أعرابي عن وليمة حضرها في أيام القيظ، ولم يكن راضيًا عنها، فقال: «كل شيء كان فيها باردًا إلَّا الماء.» وأثنى رجلٌ على شعر شاعر يوده فقال: إنَّ شعره كالماء — يريد سلاسة وعذوبة — فأجابه أحدُ سامعيه: نعم، ولكنه كماء البئر في الصيف، يُريد: في برودته.

وسأل الفقيه الشعبي رجالًا فقراء عن إبلهم، وقد رآها جربى: «ألا تعالجون هذه الإبل بما يقاوم جربها؟» فقال له أحدهم: إن لنا أمًّا عجوزًا صالحة تدعو لنا ولجمالنا، ونحن نتكل على دعائها، فقال الشعبي: لا بأس أنْ تمزجوا بدعائها شيئًا من القطران.

وسأل رجلٌ أحد أيمة الأدب: ما الشبه الذي يقصده الشعراء بجعل المرأة الحسناء كالظبية؟ فشرح له الأستاذ وجه الشبه بلفتات الظبية، وعنقها، وعينيها، ونحافة عطفيها، وكان شرحه واضحًا بسيطًا فهمه السامعون إلَّا السائل الذي قال له بعد كل ذلك الشرح: نعم، أصبت وأحسنت، ولكنك لم تُفهمني بأي شيء تشبه حسناء النساء بهيمة كالغزالة؟

فيئس الأستاذ منه، واعتراه شيءٌ من الغضب، فأجابه: تشبهها بذنبها وقرونها، فانقلب المجلس ضحكًا، وانسل الرجل هاربًا.

وعلى ذكر قرون الظبية تذكرت بيتين لأحد شعرائنا العصريين وأظنه الشيخ إسكندر العازار، قال:

فقتِ الغزالةَ بهجة وملاحة　　فتجمعتْ كل المحاسنِ فيكِ
لكِ جِيدُها وبهاؤها وعيونها　　أَمَّا القرون فإنها لأبيكِ

وكان العرب يسخرون بمن يَدَّعِي زورًا شرف النسب النبوي، فيقولون: «فلان ابن عم النبي من الدلدل، والدلدل اسم بغلة أهداها المقوقس صاحب مصر إلى حضرة النبي، وقيل: إنها أول بغلة رؤيت في الإسلام.»

ومن هذا القبيل قول الشاعر فيمن يدعي بطلًا الشعر والنسب النبوي معًا:

ما فيك من جدك النبي سوى　　إنك لا ينبغي لك الشعر

أراد بذلك الإشارة إلى قول القرآن الكريم: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾، ومن أهاجيهم التي فيها مداعبةٌ وتَهَكُّم لطيف قول القائل:

إذا ما تميمي أتاك مفاخرًا　　فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب

وطالما عُيِّرَتْ بنو تميم أنها تأكل الضباب. وقول الآخر:

أعد نظرًا يا عبد قيس لَعَلَّمَا　　تضيء لك النار الحمار المقيدا

وقول الثالث:

أرفق بعمرو إذا ما رمت نسبته　　فإنه عربي من قوارير

يريد أن ما يدعيه من نسب العروبة قصم — أي: سريع الانكسار كالقوارير — لأنه ملفَّق لا يحتمل نقدًا أو تجريحًا. ومما لا يخلو من خفة روح قول القائل:

ولا أكتم الأسرار لكنْ أذيعها ولا أترك الأسرار تغلي على قلبي
وإنَّ قليل العقل من بات ليله تُقَلِّبُهُ الأسرارُ جنبًا إلى جنب

وقول الآخر:

عتبت على الدنيا بتقديم جاهل وتأخير ذي عقل فأبدت ليَ العذرا
بنو الجهل أبنائي وأما ذوو النهى فإنهمُ أبناء ضرتيَ الأخرى

وقال أحد الشعراء فيمن حاول أمرًا بعد فرصته، وكان سهلًا عليه لو أراده في حينه:

تَرَكَ الزيارة وهي هينة وأتاك من مصر على جمل

وقال غيره:

تسألني أم وهيبٍ جملًا يمشي رويدًا ويكون الأولا

وقال بهاء الدين زهير:

قالوا فلانٌ قد غدا تائبًا واليوم قد صلى مع الناس
فرُحتُ عن توبته سائلًا وجدتُها توبة إفلاس

وقال أيضًا مخاطبًا من أراد مقاطعتها:

لا أقتضيك مودة رفع الخراج عن الخراب

يُريد أنه لم تبق لها بقيةٌ من الحسن ونضارة الصبى. وقال الأمير أبي فراس الحمداني:

فيا أيها الجاني ونسأل عفوه   ويا أيها الخاطي ونحن نتوب

وعلى هذا المنوال نَسَجَ كلامَه مَن قال:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكمُ   وتذنبون فنأتيكم ونعتذرُ

وقال شاعر في أمير كريم مدحه الشاعر فخيبه ولم يقض حاجته:

فيا لك بحرًا لم أجد فيه مشربًا   وإنْ كان غيري واجدًا فيه مسبحا
مديحي عصا موسى وذاك لأنني   ضربت به بحر الندى فتضحضحا
سأمدح بعض الباخلين لعله   إذا اطرد المقياس أنْ يتسمحا

ويقال: إنَّ هذه الأبيات أضحكت الممدوح وأفادت المادح. وقال بعضهم:

نُبئت أن فتاةً كنت أخطبها   عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

عرقوبها — أي: ركبتها — قيل: إن الإمام ابن سيرين — المشهور بتفسير الأحلام — كان يضحك حتى يسيل لعابه كلما سمع هذا البيت. وقريبٌ منه في الدعابة على طريق الغلو قول القائل:

من رأى مثل غادتي   تُخجل البدر إن بدا
تدخل اليوم ثم تد   خل أردافُها غدا

وأراد أعرابي أنْ يرحل عن أهل خطيبته بقصد فراقها وفراقهم إلى الأبد، ولكنه أوهمهم أنَّ رحلته موقتة، وترك عندهم جبته وحماره كأنهما رهينتان؛ لأجل تأمينهم:

ذهبت إلى الشيطان أخطب بنته   فأعلقها من شقوتي في حباليا

وخَلَّصَني منها حماري وجبتي جزى اللهُ خيرًا جبتي وحماريا

ومن الأهاجي التي فيها مبالغة فكهة قول أحدهم يهجو مروان الكاتب في ضعف علمه بالحساب:

لو قيل كم خمس وخمس لأرتأى يومًا وليلته يعد ويحسب
ويقول مسألةٌ عجيبٌ أمرها وإذا ظفرت بها فأمر أعجب
فيها خلافٌ ظاهرٌ ومذاهب لكن مذهبنا أصح وأصوبُ
خمس وخمس ستة أو سبعة قولان قالهما الخليل وثعلبُ

ومن نمط هذا الهجو ما قيل في أمير أَسْود اللون كان يَدَّعِي شدة الفهم، ويقول: كأني خُلقت من نار.

إن كنت من نار خلقـ ـت وفُقْتَ كل الناس فهما
وعلوتَهم أدبًا فمَنْ أطفاك حتى صرت فحما

ومما فيه خفة روح قول القائل:

وإذا رأيت العبد يهرب ثم لم يُطلبْ فمولى العبد منه هارب

وقول غيره في صديق له علا مركزه فجفاه:

سألت الله أنْ تسمو وتعلو علوَّ النجم في كبد السماء
فلما أن علوتَ بعدت عني فكان إذن على نفسي دعائي

وقول الشيخ ناصيف اليازجي:

طلبنا التداني فابتعدتَ فليتنا طلبنا النوى يا من يقابِل بالضد
وكم واجد ما لم يكن طالبا له وكم طالب ما ليس يدرك بالجهد

وهذا الأسلوب الفكه مأخوذ في أصله من أسلوب جدي بقول القاضي ناصح الدين الأرجاني:

وما زلت إما واجدا غير طالب للیلی وإما طالبًا غیر واجد

وقال حافظ بك إبراهيم منددا برجال الاحتلال في مصر:

وقد كان فينا الظلم فوضى فهُذبت حواشيه حتى صار ظلمًا منظما
إذا رمت أن تلقى السعادة بينهم فلا تَكُ مصريًّا ولا تك مسلما

ومن المداعبات الأدبية الطيبة الدالة على فهم وسرعة خاطر، ما أورده في قصيدة عبد الله التنوخي المعروف بابن القاضي، وجُلُّ ما جاء في أبياته مبنيٌّ على اصطلاحات علم العيافة عند العرب، ومرجعها إلى تجانس الألفاظ في تفاؤل أو تشاؤم، كأنْ يتشاءمون بالغراب وشجر البان؛ لأن لفظهما قريبٌ من الغربة والبَيْن، ويتفاءلون بالغَنَم؛ لأن لفظه قريب من الغنيمة. قال عبد الله التنوخي في جملة قصيدته:

نظرت إليها والمطي كأنما غواربها منها معاطس رعف
فقالت أَمَا منكن من يعرف الفتى فقد رابني من طول ما يتشوف
أراه إذا سرنا يسير حذاءنا وتوقَف أحقاف المطي فيوقف
فقلت لتربيها أبلغاها بأنني بها مستهام قالتا نتلطف
وقولا لها يا أم عمرو أليس ذا مِنًى والمنى في خيفة ليس يخلف
تفاءلت في أن تبذلي طارف الوفا بأن عنَّ لي منك البنان المطرف
وفي عرفات ما يخبِّر أنني بعارفة من عطف قلبك أُسعف
وتقبيل ركن البيت إقبال دولة لنا وزمان بالمودة يعطف
فأوصلتا ما قلته فتبسمت وقالت أحاديث العيافة زخرف
بعيشي ألم أخبركما أنه فتًى على فمه برد الكلام المفوف
فلا تَأْمَنَا — ما اسطعتما — كَيْدَ نطقه وقولا ستدري أينا اليوم أعيف
إذا كنت ترجو في منى الفوز بالمنى ففي الخيف من أعراضنا تتخوف
وقد أنذر الإحرام أن وصالنا حرام وأَنَّا عن مزارك نصدف

وهذا وقذفي بالحصى لك مخبر   بأن النوى بي عن ديارك تقذف
وحاذر نفاري ليلة النفر إنه   سريع فقل من بالعيافة أعرف
فلم أرَ مثلينا خليلَيْ مودة   لكل لسان ذو غرارين مرهف

النواحي التي اتهم الأدب العربي بالعجز فيها

هذه التهم لا يخلو بعضها من حق، ولكن معظمها تغلب عليه المبالغةُ والوهم، وتنحصر التهم المذكورة في النواحي الآتية: القصة وفن التمثيل، السياسة والإدارة، الاجتماع والعلم، الألفاظ الفنية لمستحدثات هذا العصر، وِحْدة الغرض وجَعْله محورًا يدور عليه الكلام.

أمَّا القصة وفن التمثيل فلا شك أَنهما لم يخصبا ويزدهرا في الأدب العربي كما أخصبا وازدهرا في الآداب الإفرنجية، لا لأن أدبنا عاجز بطبيعته عنهما بل لأن أدباءنا لم يولعوا بهما ويلتفتوا إليهما كما أُولِعوا وشغفوا بغيرهما من ألوان الأدب. ودليلي على ذلك وجود النوع القصصي والتمثيلي بمقدار يستحق الذكر، وإنْ لم يكن مقدارًا عظيمًا في آثارنا الأدبية الجديدة تأليفًا وترجمة، والقصة منهما وجدت في جميع عصور الأدب العربي، ولا يزال سلطان القصة والتمثيل عندنا يشتد ويمتد بصورة مطردة.

ولما وصلت إلى هنا تذكرت قصيدة لي قديمة فيها قصة خيالية رمزية، أخرج منها إلى النتيجة المتوخاة من المقام الذي كنت فيه، وهي التحذير من السكر، وإنذار الناس أنَّ عادته تدهم صاحبها تدريجًا، حتى تجعله أسيرَها فصريعَها.

ذكرتُ شابًّا وسيم الطلعة، حلو الشمائل، رأيته عرضًا في أحد المتنزهات، ثم قلت:

وكان في جانب للنهر قطعة رمـ ـل قد بدت مجلسًا في مركز وسم

فقام شوقًا ليغشاها فقلت له مهلًا فما هي إلَّا مجلس الندم

فسطحها غير مأمون لرقته يهوي بصاحبه لليم عن أمم

أجاب لا تخش إني حازم يقظ وهكذا عن سماعي كان في صمم

تركته يائسًا منه وقام إلى الـ ـمكان يسعى إليه ثابت القدم
وقال أقضي يسير الوقت فيه فلا يغور بي أو يكون اللج ملتهمي
لكنه ما قضى الوقت اليسير وقد أعاره جهده شيئًا من الألم
واستنشق النسمات الطيبات من الـ ـمروج تزهو بنور البدر في القمم
وحاك فيه هدوء الليل يقلقه صوت من الموج حلو السير منتظم
حتى أهاب به داعي النعاس وما النـ ـعاس سهل فلم يعرض ولم يجم
أغفى ولم تغف عنه عين مصرعه بل كان مجلسه في حكم منهدمِ
ينهار شيئًا فشيئًا والشقي به ينحو رويدًا رويدًا عالم العدم
كذا بدا ليَ عن بعد فرحت على عَدْو لأنقذه من تلكم النقم
لكنني قبلما أدركت موضعه جرى عليه قضاء البارئ النسم
اغتاله اللج لم يرحم محاسنه ولا صباه وآواه مع الرمم
وبينما كنت أبكيه وأندبه مفكرًا حائرًا في زي ذي لمم
سمعت صوتًا من الأفلاك يهتف بي رمز إلى السكر هذا فاتعظ وقم

وأمَّا السياسة والإدارة فقد ظهرتا في أدبنا على الشكل الذي يوافق زمانهما، ظهرتا بصبغة حزبية يوم كانت أحزاب العرب تتطاحن، لا سيما بين أُموية وعباسية، وبين عباسية وفاطمية، وأمَّا في هذه الأيام فقد تضاءل أثر هذا اللون الأدبي، أو زال بطبيعة الحال، فليس لنا ما يوجب ذلك، أو يسيغه من وجود دول عربية تامة الاستقلال مع بروز خصومات لدودة في صميمها.

وكلما احتيج اليوم إلى كلام في السياسة أو الإدارة، فالصحافة تقوم مقام الشعر على أهون سبيل، وتأتي من التفصيلات ما لا يستطيع الشعر بعضه، وأمَّا فيما سبق فمهما نسي راوي الأدب، فلا أظنه ينسى شأن ذينكم البيتين اللذين أنشدهما سديف مولى بني العباس الخليفة الأول العباسي أبا محمد السفاح، موغرًا صدره على ضيوفه ساعتئذ من أمراء أمية، وكانوا سبعين أميرًا، حتى ثار ثائر الخليفة، وأمر بقتلهم فقتلوا جميعًا، والبيتان هما:

لا يغرنك ما ترى من وجوه إنَّ طي الضلوع داء دويًّا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويًّا

وقريب من هذا الحادث أنَّ بعض أعداء البرامكة وحسادهم دسوا عليهم إحدى المغنيات الشهيرات، فغنت بحضرة الخليفة هارون الرشيد البيتين التاليين:

ليت هندًا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

وجعلت تردد العجز الأخير مرارًا حتى تنبه ذهن الخليفة أشد تنبه إلى حاله مع البرامكة، وكانوا قد احتكروا أعمال المملكة وتدبيرها، فصاح: واللهِ ما العاجز إلَّا أنا، ولكني لن أبقى كذلك وبعد أيام يسيرة فتك بالبرامكة.

وأمَّا الاجتماع والعلم فلهما في الأدب العربي شأنان مختلفان، إنَّ الاجتماعيات من أقسامها مكارم الأخلاق، وكل ما يتعلق بكيفية المعايشة والمعاشرة وآداب السلوك، وهذه أمور لها في أدبنا حيز غير صغير، وإنْ بدا صغيرًا لعين الذي لا يحسن التأمل؛ لأن غيرها من الأبواب يكاد يغمرها ويخفيها عن النظر — أي: أبواب الفخر، والحماسة، والغزل، والنسيب، والمدح، والتهنئة — فإذا أعاد القارئ النظر، وأحكم البحث رآها ضاربة بسهمٍ صالح من الأدب العربي، ككتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، والأدب الكبير والأدب الصغير للجاحظ، ومقدمة ابن خلدون، وعدة فصول للماوَردي والقليوبي. ومن آثار أبناء العصر كتابات لفارس الشدياق، والشيخ نجيب الحداد، والمنفلوطي، وولي الدين يكن، وغيرهم جمهور عظيم.

بقي أمر المباحث العلمية ونصيبها من الأدب العربي ضئيل بحد ذاته، ولا غضاضة في ذلك، فهذه المباحث ومثلها المباحث الفلسفية يجب أنْ تُطلب في مواطنها، وما الأدب إلَّا دار غربة لها؛ لأنه لا يتحمل فيها بسطًا وإشباعًا، وإنما أوطانها أقلام العلماء والفلاسفة، فمن أرادها فليلتمسْها في آثارهم ضاربًا صفحًا عن النابغة، ولبيد، وأبي تمام، والبحتري، وأبي نواس، وبهاء الدين، وخليل مطران، وشوقي، وأضرابهم. نعم، إنَّ الأدب المحض يحتمل من مباحث العالم إشارات ولمحات، بل تكون له هذه إذا أحسن استخدامها زيادة بهجة، ودعامة قوة وتأييد، ولم يعدم أدبنا العربي بصيصًا من هذه الإشارات واللمحات، ومن ذلك قول سعد الدين بن العربي:

ألقيت أكسير اللحاظ بخده فقلبت فضته النقية عسجدا

وقول غيره:

لم أنسه إذ قال أين تحلني   حذرًا عليَّ من الخيال الطارق
فأجبته في القلب قال تعجبًا   أرأيت ويحك ساكنًا في خافق

وقول غيره:

وما بال برهان العذار مسلمًا   ويلزمه دور وفيه تسلسل

وقول الآخر:

شهدتْ لواحظُهُ علي بريبة   وأتت بخط عذاره تذكارا
يا قاضي الحب اتئد في قتلتي   فالخط زور والشهود سكارى

وقول بعضهم:

لا فضل لي فيما بعثت لأنني   أهدي له ما نلت من نعمائه
كالبحر يمطره السحاب وما له   فضل عليه لأنه من مائه

وقول الرئيس ابن سينا:

اجعل طعامك كل يوم أكلة   واحذر طعامًا قبل هضم طعام
واحفظ مَنِيَّكَ ما استطعت فإنه   ماء الحياة يراق في الأرحام

وقول إبراهيم الحوراني:

محمول أم المجد موضوع العلى   روحي فدى المحمول والموضوع

والمحمول والموضوع عند أهل المنطق هما المسند إليه والمسند عند أهل العربية، وربما امتد نفس الأدب إلى أكثر من هذه الإشارات الخفيفة في مباحث العلم، وهكذا فعل الشيخ إبراهيم اليازجي ناظمًا في كوكب الزهرة قصيدة عامرة منها قوله:

قف بي نُحَيِّ رباها أيها الحادي	فتلك أبياتها في عدوة الوادي
قد خيمت باللوى الغربي ضاربة	عليه أطنابها من غير أوتاد
مقيمة لم تقم إلَّا على سفر	لا ينقضي بين تأويب وأسآد
فنبئينا — رعاك الله — جارتنا	بل أنت سوغ لنا من عهد ميلاد
قد انقطعنا فما إنْ بيننا صلة	ولا سبيل لملاح ولا حاد
ولم يكن بيننا سد وقد ضربت	أيدي الفضا دون لقيانا بإسداد
يا ليت شعريَ هل تدرين موضعنا	وهل لديك رجال أهل إرصاد
وهل رأوا ركبنا النوري منطلقًا	في ليلهم بين تصويب وإصعاد

أمَّا التقصير في الألفاظ الفنية لمستحدثات هذا العصر، فلا أُنكر أنه موجودٌ في لغتنا وأدبنا، وإننا لا نزال نُعاني مضضه وألمه، ولكننا أخذنا نكافحه مكافحة ناجحة منذ خمسين سنة، بحيث أوجدنا قسمًا من هذه الألفاظ التي تعوزنا عن طريق الاشتقاق والمجاز، وبقي علينا قسم آخرُ نرجو سَدَّ ثلمته رويدًا رويدًا، ولَعَلَّنَا قضينا إلى الآن نصف حاجتنا في هذه الناحية الواسعة الأرجاء.

وأقربُ دليلٍ على نجاحنا في هذا السبيل أنَّ المدرسة الجامعة في دمشق، ومدارس الحكومة في سائر سورية مع كثير من مدارس القُطر المصري؛ اتخذتْ اللغة العربية لتدريس العلوم والفنون المختلفة، وكلها سائرةٌ على قدم النجاح، ولا عبرة بما يعترض المدارس أحيانًا من صعوبة جزئية وحيرة موقتة؛ فهذه المزعجات منتظَرة في فجر هذا الانتقال، وستزول بعد سنوات يسيرة.

وكل ما عندي في هذا الصدد وجوبُ اتخاذ الحيطة التي ناديت مرارًا باتخاذها، وجوب اتفاق علمائنا وأدبائنا ومجامعنا على كل لفظ فني جديد؛ لكي يستعمله الناطقون بالضاد على السواء، ويتفاهموا به على السواء، وإلَّا وُجِدَ لكل معنى جديد ولكل غرض جديد لفظان أو عدة ألفاظ مما يُحدث ارتباكًا وتشويشًا، بل يهدد وحدة لغتنا الفصحى، وإنْ لم يظهر خطر ذلك في عصرنا الحاضر فلا بُدَّ من ظهوره في عصر مقبِل، ما دمنا لا نتخذ الحيطة المذكورة لتوحيد الآراء والأحكام في هذا السبيل.

ومناسبة لهذه الناحية أقول: إنَّ كثيرين تعودوا أنْ ينعوا على لغتنا كثرةَ المترادفات فيها على غير طائل، وقولهم هذا فيه مبالغةٌ، وشططٌ في الحكم؛ إذ يُجَسِّمون القبيح من متعلقاته، ويضربون صفحًا عن الحسن، لا ننكر أنَّ في لغتنا فئات من المترادفات الكثيرة، ولكن هذا الكثير لم يوضع إلَّا لقليلٍ من المعاني، فإن المترادفات الكثيرة المحضة تنحصر في الأسماء الحسنى، أي: أسماء الله — عز وجل — وأسماء حضرة النبي العربي، وفي اسم السيف، والرمح، والجمل، والبحر، والقفر، والخمر، والداهية مع قليل غيرها.

فليس الخطب فيها عظيمًا ما دامت لا تزيد على بضعة عشر اسمًا، ومما اقتضى كثرتها معايش أهلها الأولين في الجاهلية، واختلاف مصطلحاتهم حسب اختلاف قبائلهم، وأمَّا غيرها من المترادفات فهي قليلة العدد لكل معنًى يُراد، أي: أنه قد يكون للمعنى الواحد مرادفان، أو بضعة مرادفات، ومما يجب التنبيه عليه بهذا الصدد أن عندنا مترادفات ليست بالمترادفات المحضة، بل بينها فروق في المعنى حسب كمية الشيء، أو نوعه، أو حالات مختلفة من أحواله.

وهذا لا يحسب على الأدب العربي عيبًا، بل برهانًا جليًّا على الدقة والسعة، مما قدمت عليه أمثلة كافية منذ سنوات في خطابي الذي عنوانه: «نحن ولغتنا العربية في العصر الحاضر»، وهذا هو الوجه الحسن الذي قلت: إنَّ جمهورًا من النُّقَّاد يضربون عنه صفحًا، إمَّا عمدًا وإمَّا جهلًا، وإمَّا سهوًا.

وأمَّا عدم العناية بوحدة الفرض، الذي يجب أنْ يُجعل محورًا يدور عليه القول في كلياته وجزئياته؛ فهو تقصيرٌ لعله وقع في شيء من آثار العصور الأولى، لا سيما العصر الجاهلي يوم كان البدوي يُطلق لقريحته وعواطفه العنان غير متقيد بشيء؛ وذلك بمقتضى فطرته وما تعوده في معيشته. وأمَّا معظم آثارنا الأدبية فيما عدا ذلك فلا تفوتها وحدة الغرض ووضوحه، لا سيما أقوال الكُتَّاب والشعراء في نهضتنا الحديثة.

وخير ما أختم به بحثي الحاضر إجمال ما فصلته من أنَّ الأدب العربي مشرقُ الوجه، جميل المحيا، حلو الشمائل؛ لأن وراءه سندًا ومددًا عظيمًا من لغته التي فيها — مع قوتها العجيبة — مرونةٌ وطواعية. وقد برهنت على ذلك بما حواه صدرها من كنوز آثار المدنيات القديمة، وهضمها في أحشائها هنيئًا مريئًا بدون أنْ يصيبها شيءٌ من سوء الهضم.

وأظن خمسة عشر قرنًا كافية للشهادة بذلك وتأييده، فما بال خاصتنا في العلم والأدب، وخاصتنا في الثروة والجاه، ونفوذ الكلمة لا يَحْذُون حذو أسلافهم الكرام في إنعاش لغتهم وآدابها بشتى الوسائل الفعالة، حتى جعلوها واسطة العقد بين اللغات الحية في تلك العصور مما استحقتْه بطبيعتها ومركزها، فلم يجهل أولياؤها ذلك الحق ولم يتجاهلوه، بل عملوا على تحصيله فحَصَّلوه، وأصبح بذلك اسمهم خالدًا مسكي النفحات:

وحَدَّثْتَني يا سعدُ عنهم فزدتني ... هيامًا فزدني من حديثك يا سعد
هواهمُ هوًى لم يعرف القلب غيره ... فما قبله قبل ولا بعده بعد

وأمَّا ما أشرنا إليه من مطاعن الأدب العربي فهو لا يزيد على تُسع أو عُشر حسناته، وكل أدب من آداب الأُمم العابرة والغابرة يَعتريه من المطاعن ما يُعادل الذي ذكرناه أو يفوقه أضعافًا، وهو غير متمتِّع إلَّا ببعض المحاسن التي عُرف بها أدبنا. وأمَّا نهضتنا الحديثة فخطواتها في التقدم ظاهرةٌ للعيان، وإنْ لم تكن سريعة، والذي أراه أنها تتطلب ثلاثة شروط لكي تصبح آمنة مأمونة عزيزة الجانب:

الشرط الأول: إيجادُ صلة معنوية وثيقة العرى بين الطبقة المفكرة منا، وطبقة أهل اليسار والنفوذ، وخيرُ وسيلة لذلك أنْ يتذوق الموسرون النافذون طعم الأدب منذ نُعُومة أظفارهم، فيعطفوا على أهله وأنصاره.

الشرط الثاني: أنْ تُقلَّم أظفارُ الأدب الخفيف — إذا صح تسميته أدبًا — ويقلص ظله، من صحافة غير راقية ولا نزيهة، ومن قصص تافهة، ونحو ذلك، وينشط الأدب الصحيح الذي هو فوق ما ذكر بصورة ظاهرة، سواء كان تصنيفًا، أو جمعًا، أو تعريبًا.

الشرط الثالث: أنْ يُعنى بحسن التعريب في متانةٍ ورشاقة عن لغات الفرنجة، وإلَّا فالترجماتُ الضعيفة السخيفة يظل ضررُها وخطرها على أدبنا أعظمَ من فوائدها.

ويضاف إلى هذه الشروط الثلاثة أن ينبه الأدباء وناشئة العلم إلى وجوب الحكم على كل أثر أدبي لذاته، أي: بغَضِّ النظر عن قائله، بحيث ينظر إلى القول بعين النقد الصحيح لا إلى القائل. فعلى هذا المنهاج يميز بين الغث والسمين في أدبنا، ويعطى كل

ذي حق حقه، ويخف فيما بيننا سلطان تأثيرات جمة كالحزبية، والطائفية، والقربى، والصداقة، والمركز الاجتماعي والشهرة.

وكثيرًا ما تكون الشهرة في بلادنا مزيفة مصطنعة، أو ثوبًا فضفاضًا على الواحد، وثوبًا قصيرًا ضيقًا على الآخر بعوامل مختلفة، فلا تحسب الشهرة ومقدارها بيننا مقياسًا صحيحًا لاستحقاق ذوي القرائح، وإنما يمكن اتخاذها دليلًا استئناسيًّا، لا حجة دامغة لإصدار حكم حاسم ليس وراءه نقض ولا إبرام.

كذا داؤنا يا قومنا ودواؤنا　　فإنْ نتهاونْ فالهلاك قريبُ
وإنْ نتدارك أمرنا فأمامنا　　طريقُ نجاة واضح ورحيبُ